دكتور محمود متولى

طغاة التاريخ

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية



اقرأ

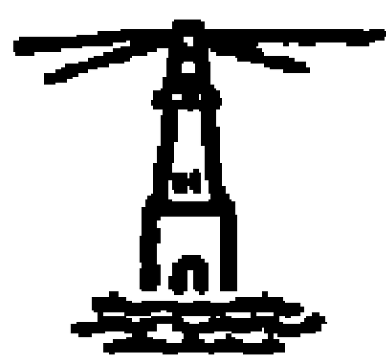
[٥٨٨]

طغاة التاريخ

دكتور محمود متولى

طغاة التاريخ

فاضل



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

مقدّمة

منذ وجد الإنسان على سطح الأرض فى صورته الواعية ، وحركته الدائمة لا تتوقف باتجاه الأمام بغض النظر عما اعتراها من تعثر من انحراف في هذه الفترة أو تلك وفى ذلك القطاع أو غيره ، وللحركة - كل الحركة - ما لم تقع في نطاق قانون معين تحاكم وتقيم من خلاله ، فهى شيء آخر ولو كان ظاهرها يضعها فى صورة الحركة .

ولحظات الانحراف فى تاريخ الإنسان رغم امتداد بعض منها إلى نصف قرن مثلاً إلا أنها فى الواقع ما هى إلا لحظات إذا ما قيست بحساب الزمن فى تاريخ البشرية ، لحظات الانحراف هذه هى الفترة التى حكم فيها الطغاة ..

فمن هو الطاغى ، وما تعريف الطغيان ، والواقع أن وجهات النظر تتعارض وتتناقض وخطورة الموضوع تكمن فى :

* **أولاً** : قد يحدث تطور ما فى ظل حكم الطاغية ، وهنا يصعب القول بأن الطغيان تيار عكسى مضاد لحركة التاريخ .

* **ثانيا** : قد يكون الطاغية رغم طغيانه واستخدام الكثير من أساليب الانتهازية فى الحكم محبوبًا من شعبه ، على الأقل الفئات

التى استفادت خلال تواجده فى السلطة وهنا يصعب القول بأن الطاغية مكروه من شعبه ملعون من الإنسانية ولا أحد يترحم على أيامه .

* ثالثًا : قد يكون الطاغية وحكمه ضرورة تاريخية تفرضها ظروف المجتمع وبالذات في دول العالم الثالث ، حيث الأمية تسيطر وميراث الاستعمار ، وعدم تواجد مؤسسات للحكم وظهور فكرة البطل والزعيم فى هذه المجتمعات تصبح الأمل الذى تبحث عنه الجماهير ويتمسك به الرأى العام فى هذه البلدان ، ويكون هنا الحاكم حاكما مطلقًا مستنير الاتجاه ولكنه وفقًا للمعايير التقليدية لتعريف الطاغية هو بحق طاغية .

* رابعًا : قد يأتى الطاغية بعد فترة من العبث والفوضى والاستهتار بحقوق الشعب من جانب مؤسسات صورية للحكم .

ويظل السؤال الحائر ما هى أبعاد تحديد فكرة ومفهوم الطغيان ؟

ويهمنا أن نفهم من البداية بعض البديهات :

أن الإصرار الجماهيرى الواعى على الانتصار للفكر الديمقراطى ، هو صمام الأمن الوحيد ضد الجنوح نحو الديكتاتورية ، فالإرادة الحرة لشعب من الشعوب هى الضمان لتحقيق إنسانية الإنسان بتجسيد حريته السياسية والاجتماعية وشرعية البقاء فى ظل حرية

الكلمة ، ليس ترفًا يسعى إليه المثقفون وحدهم ، وذلك لأن الإرادة الجماهيرية الأصيلة بعمق التاريخ ، واتساعه ما هى إلا معركة المواطن العادى لتحقيق التقدم والتطور ، والإسهام فى بناء الحضارة من خلال توفير لقمة العيش له ، وحمايته من كل القوانين الجائرة وتمتعه بحقوقه كإنسان له حق الاختيار فى الحياة التى يحياها .

وليس بخاف على أحد أن شعوب العالم ذات المستوى الاقتصادى الواحد تكاد تتشابه فى بعض الخصائص والسمات ، ولكن من المؤكد أن لكل شعب سيكولوجيته وشخصيته من خلال الإطار التاريخى الذى مر به .

وتزاوج الحضارات ومزج الثقافات ، قد يغير من بعض الصفات لشعب من الشعوب ، ولكن يظل القوام الأساسى لتحليل شخصية هذه الأمة نابعًا من تراثها وتجربتها الحضارية .

ومن هنا فإن الشعوب قد تختلف فى تحديد من هو الحاكم الطاغية ، وقد يكون الطغيان معنى الحكم الفردى وقد يكون التمسك بالسلطة مهما كانت الضحايا وقد يكون معنى الطغيان الحكم بدون مؤسسات وبدون برلمان أو بلا دستور لكن من المؤكد أن الطاغية هو الذى يكمم الأفواه ويصادر الحريات ، وتستغل السلطة لصالحه .

الطاغية .. وحركة التاريخ :

إن الطاغية فى حركة التاريخ عمل سلبى يجر الشعوب إلى الوراء ويقف ضد التقدم الإنسانى ، وينشر الأوبئة الفكرية والانحرافات ويخلق التزييف ويبعث على النفاق .

ولكى يتفق كلامنا مع المنهج العلمى ليمكننا معالجة الموقف بأمانة تاريخية لابد من تحديد الإطار الذى يمكن فى ضوئه تعريف الطاغية .

١ – بعد تقويم فترة حكمه يمكن الحكم على ممارساته وسياسته بأنها لم تؤد إلى تطور المجتمع تطورًا حقيقيًّا ، وإلى إعلاء شأن الإنسان وتحليه بمجموعة من القيم الأخلاقية ..

٢ – إلى أى مدى ارتفع مستوى المعيشة خلال فترة تواجده فى السلطة .

٣ – إلى أى مدى تمتعت الصحافة بحريتها ومارست المؤسسات الديمقراطية دورها بأمانة ولصالح الشعب الذى تمثله .

٤ – وأخيرًا ما هو التغير الذى حدث فى عهده بالنسبة لقيمة الإنسان الاجتماعية ؟ ... هل تعرض لمصادرة حريته وسجن أفكاره ؟ ، ما هى صورة التعذيب الذى تعرض له ؟ ، وكم من الظلم وقع فى عهده ؟ .

وفى ضوء هذا المنهج يمكن أن نطلق على ستالين طاغية ، وعلى هتلر طاغية ، وعلى موسولينى طاغية ، اجتمع لثلاثتهم صفتان هما لعنة شعوبهم التى تلحقهم فى مماتهم بصوت عال كما لحقتهم بصوت منخفض فى حياتهم .

وفى ضوء هذا المنهج أيضًا أمكن القول بأن « فرانكو » كان طاغية من نوع خاص وعيدى أمين طاغية أقل شأنًا وروبسبير زعيم الثورة الفرنسية فى بعض مراحلها يمثل صورة الطغيان المتعطش لسفك الدماء ، إن كلمة الطاغية مرادفة لكلمة الديكتاتور ، وكل طاغية يستند إلى فلسفة وعقيدة تسانده وفى ضوئها يرسم خطواته ويحدد استراتيجيته .

غاية الطاغية :

إن شرف الكلمة ومسئوليتها بالنسبة للملتزم بها تدفعنى إلى التأكيد – الآن ودائمًا – أن أى طرح لموضوعات طغاة التاريخ لابد وأن يقع بين ثلاثة حدود :

* **الأول** : ما هى الغاية التى كان يسعى إليها الطاغية ؟

* **الثانى** : ما هو الدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية ؟

* **الثالث** : ما هى العوامل التى تتحقق بها هذه الغاية ؟

والملاحظ أن الغاية التى كان يسعى لها – ولازال – كل طغاة التاريخ هو بقاؤهم الدائم فى الحكم واحتفاظهم بالسلطة مدى الحياة ، لا يتركون فرصة لغيرهم ويحاربون كل من يشعرون بأنهم يطمعون للوصول إلى عروشهم ، والدافع الذى تصدر عنه هذه الغاية اعتقاد الطغاة أنهم من طينة غير طينة البشر ، وأن عليهم رسالة يجب أن يؤدوها وأنهم ملهمون من الله ، ويحملون عبء مسئولية القيادة ، وفى ظل هذا الجنون من العظمة يظنون أنفسهم العبقرية الوحيدة ويعتقدون أن ذكاءهم فوق كل ذكاء وغيرهم هم الأغبياء ، من خلال الكثير من العقد النفسية التى تسيطر على اللاوعى داخلهم ، تتضخم ذاتهم ويصبح هذا الدافع هو الذى فى ضوئه يعلنون أن مهامهم لم تنته بعد وأن عليهم إنجازات لابد من إتمامها دون إدراك أن هذه الإنجازات فقدت محتواها .

وبقيت فى هذه المقدمة ثلاث مسائل هى أقرب إلى الأسئلة من أى شيء آخر : هل علاقة السلطة بالمواطن هى التى تحدد أبعاد دائرة الطغيان والإجابة – نعم ... ذلك أن وجود الإنسان – خليفة الله فى الأرض – هو الذى يعطى الوجود معناه ومن هنا كان تقويم أى نظام حكم بما يعود على هذا الإنسان من تطور وتقدم .

والثانى : هل الأحكام التى سوف نصدرها قاطعة ، والواقع أن المؤرخ كالقاضى يحكم وفقًا لما قدم له من مستندات ولا يمكن

لقاض أن يخالف ويحكم من خلال أحاسيسه أو عواطفه ، وهنا يكون الاعتماد على الوثائق مهمة ضرورية .

أما الثالث فهو : لماذا تثار مثل هذه الموضوعات على صفحات الصحف وما الذى يعود علينا من طرح السيرة الذاتية لشخص ويوضع فى قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ ولعل الإجابة على ذلك ليس فقط فيما يمكن أن يستفاد من أخطاء الماضى ، ولكن لأن الحاضر بكل ما يحتويه ما هو إلا موجات متدافعة من بحر الماضى ، وكذلك ليس المستقبل بكل ما سوف يحتويه سوى موجات متداخلة من بحر الحاضر .. وهكذا كان التاريخ وسيظل حلقات متداخلة تصنع سلسلة واحدة ، فإذا سقطت واحدة من هذه الحلقات ضاعت حبات السلسلة وانفرط عقدها .. وبضياع السلسلة يضيع التاريخ .

جرس إنذار :

إن دراسة طغاة التاريخ ليست إساءة لشعوب رضخت - رغم أنفها مكممة أفواهها لنزعات الطاغية - ولكنها عبرة تتعظ منها الأجيال وجرس إنذار للشعوب وصرخة تتعالى من كافة أنحاء المعمورة أن انتبهوا ، قبل أن يغمرنا الطوفان .

وبقى أخيرًا أن أقول : إننى لا أريد أن تتحول ساحة هذه المقدمة الصغيرة إلى سرادق للعزاء للشعوب التى اكتوت بنيران الديكتاتورية

من جراء حكم الطغاة ، كما أنها ليست محاكمة تاريخية لهم لنبش الماضى وإثارة المرارة ولكنها فرصة لطرد الغربة من حدائق الأحزان ، وذكرى نرجو ألا تنطوى أو تذوب من مخيلة الجماهير حتى لا تتعثر مرة أخرى ، وحتى لا تساهم فى صناعة الأصنام لتعبدها ثم تقضى بقية عمرها تشكو آلامها من عذاب الضمير من تلك الآلهة ، التى كانت هى السبب فى تواجدها ، ولم تستطع أن تقضى عليها إلا بعد أن دفعت الثمن غاليا .

أ .د . محمود متولى

نيرون

طاغية الرومان

الخيال مهما ينم ويترعرع فهو قزم إلى جانب الواقع الذى إذا عرفناه أخذ بالألباب ، وقد يطير بصواب ذو العقول الخفيفة وأنا على ثقة أنه ليس بين قرائى منهم أحد .

ونحن لا نملك القدرة على أن نبدل الماضى ، ولكن من الواجب علينا أن نفهمه حتى يمكننا أن نقى أنفسنا شرور ما حدث فيها ، وحكم الطغاة لم ينته حتى الآن فى أنحاء الأرض ، نجد ملامحه فى دولة ما ، فى مجتمع ما ، ولا شك أن انتصار حكم الفرد وسيطرة الحكم الشمولى هما عنوان الطغيان ، وعلى العكس فإن انتصار الديمقراطية وظهور دولة المؤسسات وحماية حقوق الفرد فى مواجهة سيطرة المجتمع واستغلاله وفى مقابل حماية المجتمع من طغيان الفرد وسيطرته وهيمنته ، هذا المجتمع مجرد ظهوره يجعل الحزن والأسى ينتاب الشيطان وحاشية السوء وبطانة النفاق والتملق .

وتعتبر دراسة نيرون ، دراسة لشريحة معينة من الطغيان ، لا تتكرر كثيرًا فى التاريخ لما تحمله من شكل القسوة والجحود ، لقد كانت

أيام حكمه عذابًا لا ينسى ولحظات سلطانه ذكريات لا تمحى إلى درجة يمكن القول معها إن التاريخ خجل مما فعله ولأن الشيطان احتقر نفسه لأنه رأى أستاذًا له بين بنى البشر .

هذا الطاغية ، هو « نيرون » إمبراطور الرومان المدلل ، ذو السبعة عشر ربيعًا ، الذى اغتصب الملك ولم يكن له حق شرعى فيه ، وفى الطريق إلى العرش قتلت أمه قيصر روما المدعو « كلوديوس » ولكى يثبت هو نفسه فوق هذا العرش قتل الوريث الشرعى المدعو « بريتنيكوس » ابن الإمراطور كلوديوس ، كما قتل أمه بل اغتال أقرب معاونيه عندما شعر أنهم عقبة أمامه للحكم المطلق ..

ويعد نيرون من أشهر سفاحى الرومان ، من أكبر ممثلى مسرح السياسة العالمية وكان له مظهر برىء لا ينم عن حقيقة الوحش داخله ، كانت له كتفان ناعمتان مستديرتان ولم تنبت على جانبى وجهه شعرة واحدة ويوم أحرق روما بكى عليها وكان صادقًا فى ذلك ، فقد أفزعته النيران وصرخات الأطفال والأمهات ، فلم يتصور أن أوامره لها هذه القوة التدميرية ، ولا أن العذاب له هذا الكورس من الآهات والزفرات .

والواقع أن نيرون لم يكن بدعة ولا شذوذًا فى تاريخ الطغاة الرومان ، ولكنه كان أخلدهم للآثار التى ترتبت على حكمه ولم تُمحَ لما كان لها من الذكريات المؤلمة سواء فى نفوس مسيحيى

الإمبراطورية أو فى ذكرى وثنييها فهى مرحلة حكم فقد فيها الرومان ابتسامتهم ، ونسوا بشريتهم ، وعاشوا منساقين وراء كذبة كبرى عندما اكتشفوا حقيقتها اهتزوا من الأعماق لضياع أعمارهم سدى ، ونسى هؤلاء الطغاة أن الشعوب لا ترحم حكامها إذا فسدوا ، قد لا تستطيع النيل منهم ، ولكنها تتربص لهم حتى ولو رحلوا إلى العالم الآخر ، نعم لم يكن بدعة فهناك طغاة من الرومان حكى لنا التاريخ الكثير عنهم ، مثل كاليجولا وسلا ، ويحاول كل طاغية أن يحمل دورة الزمن على أن تبطىء قليلاً ولكن الحياة رغم أنفهم تسير والزمن يتحرك دون أن يدروا ، لقد كان السفاح الإمبراطور كاليجولا يجد متعة فى شنق نوعية معينة واحدة من البشر ألا وهم الشعراء ، وكان يطلب إليهم أن يرتجلوا الشعر وأن يغنوه وأن يرقصوا ثم يأمرهم بأن يلقوا بأنفسهم من شرفة عالية !! ! ولقد أدت به نزواته إلى اغتياله .

أما سلا » ذلك السفاح الثانى فقد كان حاكمًا مجردًا من روح العطف وذلك سلبه القدرة على التمييز ، ولم يشعر الشعب بأى ولاء نحوه فى فترة حكمه من ٨٢ ق .م إلى ٧٩ ق .م ، وكان ضيق الأفق وخلف وراءه تركة مثقلة بالكراهية .

كان نيرون متخوفًا متخاذلاً ، حقودًا ، قاسيًا يحكم عن هوى ، آمن أن الراعى الصالح هو من يجز صوف غنمه ، لا من يسلخ

جلدها ولكنه خالف هذه القاعدة فى النهاية حيث أحرق عاصمة ملكه ، وهو يتلظى من نيران اللذة ، كانت غرائزه تتراكض فى مسرح كيانه وتتقاتل وتتفاخر وكانت الغلبة لأقواها وأعنفها وأشدها جسارة وقحة .

تولى نيرون الحكم عام ٥٤ ميلادية وظل يحكم ١٤ عاما وأنهى فترة حكمه فى شهر يونيو ٦٨ حيث قتل نفسه ، فكانت الخاتمة الطبيعية لأشرس طغاة التاريخ تعذيبًا لشعوبهم فقد أثار غضب النبلاء لاضطهادهم وأثار سخط الجيش بإهماله شئون الجنود ، وساعد على ثورة الجماهير بتسليمه ذمة الحكم لمحظيته اليهودية « بوبيه » .

كان نيرون متوسط القامة ممتلىء البدن أسمر اللون وضاءه ، وكان شعره مموجًا كثيفًا ، وعيناه زرقاويتين يثقلهما قوس حاجبيه الغزيرين أما أنفه فقد كان رومانيًّا نبيلاً ، وأما فمه فقد كان ساخرًا قاسيًا غليظًا يتدلى طرفاه فى شره والتردد واضح على عينيه ، ولقد أدرك علماء النفس تلك العلاقة بين الشكل الخلقى والتصرفات السلوكية الشخصية ، وأظهر ما كان يبدو على محيا نيرون ذلك القلق الدائم والعيون الزائغة والحيرة القاتلة واضطراب النفس ، وتوزع إحساساتها وعواطفها ، لم يتعلم على يد معلم ولم يكن يجيد غير بعض أساليب البلاغة الكلامية استمدها من أحاديث رفاقه المتزلفين المتملقين .

كان نيرون مخلوقًا يتبع قانون اللذة وندائها وكان يهيم حبًا بالشعر والموسيقى وفن النحت ، ويقضى ساعات فراغه تارة فى العزف على القيثارة ، وأخرى فى قرض الشعر ، وكانت أمه بثاقب نظرها تدرك أن ولدها لا يصلح أن يكون إمبراطورًا ، ولذا جاءته بالفيلسوف « سنيكا » وبذلت قصاراها فى إنهاض عقله وصقل عواطفه وإعداده للمنصب العظيم على يد ذلك الفيلسوف ، لقد أعجب نيرون بوالدته ، فى الوقت الذى كان يرهبها ويخشاها ، وكانت أمه تعد العدة لكى يرث ابنها عرش الإمبراطورية لذلك فإنها ظلت تتحايل حتى تزوجت من خالها كلوديوس ، رغم مخالفة ذلك للشرائع السماوية وللنواميس الرومانية ، ولكن أمه ظلت تغرى بحيل شيطانية خالها حتى وقع فى حبائلها وانقاد لها ثم خضع تمامًا لرغباتها الشيطانية ، وكان نيرون يجهل تاريخ بلاده ويجهل حدود الإمبراطورية الرومانية التى سيحكمها واستقدمت أمه عراف مصرى عبقرى وتنبأ لها قائلا لها : سيئول العرش إلى ولدك ولكنه سوف يقتلك » فردت قائلة : « ليقتلنى ولكن ليحكم » .

التف حول نيرون مجموعة من الأفاقين يحدقون به ويعظمون شأنه ، ويغدقون عليه آيات الثناء فيكاد يجن غبطة وفرحة ، وهذا الإعجاب المطلق كان طريقه إلى الطغيان وهذا التملق كان أحد

أسباب قسوته وغروره وخيلائه ، ولكن يحسن فى البداية الكلام عن روما قبل نيرون .

قبل ولاية نيرون :

ليس فى تاريخ الإمبراطوريات قديمها وحديثها سوى ثلاث إمبراطوريات كانت كل منها لسوء حظها تعانى من أباطرتها الضعاف وملوكها الباحثين عن مصالحهم دون النظر لمصلحة شعوبهم سوى الإمبراطورية الرومانية ، والإمبراطورية العثمانية ، والإمبراطورية النمساوية ، قد حملت كل من هذه الدول الثلاث على مر الأيام التأكيد لدى كل المراقبين والمحللين أن سقوطها ينتهى بمأساة فاجعة سواء لملاكها أو لشعوبها . وتشابهت ظروف الإمبراطوريات الثلاث فى الإجرام المنتشر ، الذى أحاط بها وطوائف المحظيات والبغايا تعيث فى البلاط فسادًا ، والفوضى الخلقية تضرب أطنابها فى كل أراضيها ، وكان المحاسيب والمتزلفون المقربون للأباطرة والحكام يحكمون بدلاً منهم ويستبدون بالسلطة ويتشحون بذلك المجد الموهوب الذى ينشده كل وصولى ، وأمعن معظم حكام تلك الإمبراطوريات الثلاث فى غيهم وتمادوا فى الجرى وراء شهواتهم وجعلوا من حياتهم سلسلة متصلة من الجرائم ومجموعة نكراء من الدسائس والانتقامات وإهدار الدم البرىء .

ذلك هو المسرح السياسى الذى ظهر فيه « نيرون » طاغية الرومان الأكبر .. ذلك المجنون الذى لا زالت المؤرخين فى حيرة مما فعله بعاصمة ملكه « روما » ، حيث أحرقها هى ومن فيها وجلس فوق ربوة عالية يضحك ملء شدقيه ويلعب ألحانا هستيرية على قيثارته ثم فجأة ينقلب باكيا وكأن ضميره استيقظ نادمًا على هول الجرم الذى ارتكبه فى حق شعبه وبلده ، بل فى الواقع الجرم والإثم الذى ارتكبه فى حق التاريخ .

وفى غضون العام الذى أعلن فيه نيرون وليا للعهد أصيبت الدولة الرومانية بكوارث هائلة أقضت مضاجع الرومانيين وحرمتهم لذة الرقاد وخنقت فى نفوسهم بواعث المرح والسرور وزلزلت الأرض ودفنت جموع كبيرة فى هذا الزلزال تحت الأنقاض ، وقل حصاد القمح ، وفشا الجوع وانتشرت الأمراض وكأن السماء تنذر أهالى روما بالمستقبل الغامض الذى ينتظرهم .

وكانت الحياة فى روما التى عاصرها نيرون ، موزعة بين انتهاب الملذات وارتكاب الجرائم واشباع الغرائز ، وكان سلوك والدته وسلوك الإمبراطور وسلوك أشراف روما ، فى هذه الملذات أحدث فى نفس الشباب أبلغ تأثير وطبع نفسه بألوان التمزق فى الشخصية ، وكان يستطرب الحياة المستهترة الخليعة وانصرف إلى التمتع الجنونى بمختلف الرذائل ، وكان يخادع أستاذه فلا يكاد يبصره حتى يردد

بعض الحكم والآيات الفلسفية فإذا ما خلا إلى نفسه تمرغ فى الوحل ودفن الفضيلة بلا رحمة وكان يعد له معلمه سنيكا مجموعة من الخطب الرنانة والقصائد العصماء ، حيث يقوم بترديدها أمام الأشراف والقواد وخلالها يتضح له شخصية مهزوزة كانت تميل إلى التمثيل والتهريج ، كان يضحك تارة ثم يبكى ، يرفع الصوت ثم يخفضه ، يرسل الصرخة ثم يكبحها متوهمًا أنه والإله سواء .

لما بلغ الـ ١٦ سنة زوجوه بأوكتافيا ابنة الإمبراطور كلوديوس وسنها لا تتجاوز الحادية عشرة وهو زواج سياسى لتوثيق الصلة بين « نيرون » وبين العرش حتى يتسنى لأمه أن تحقق مأربها فى أن يصبح إمبراطورًا .

بدأ حياته السياسية متقربًا لمجلس الشيوخ حيث فرض عليه شخصيته بخطبته التى أعدها له سنيكا وسحر أعضاءه ببلاغة ، وأثار إعجابهم بدفاعه الحار عن المدن الرومانية البائسة ، التى هدمها الزلزال ودمرتها الحرائق وكان يطالب بإعفاء سكان تلك المدن من دفع الضرائب ويدعو لتحرير بعض شعوب الإمبراطورية وينصب نفسه محاميًا عن الضعفاء ونصيرًا لكل بائس محروم .

الإعداد لولاية العرش :

قلنا إن الخطوة الأولى لنيرون للوصول نحو العرش كانت خطيئة كبرى وهى زواج أمه من خالها الإمبراطور كلوديوس ، أما الخطوة

الثانية فهى إبعاد الوريث الشرعى ابن كلوديوس ، وكان يدعى « برتينيكوس » من العرش باتهامه بالجنون والسفه ، وتجىء الخطوة الثالثة بخطبة نيرون من أوكتافيا ، ابنة الإمبراطور كلوديوس ولم يكن عمرها يزيد عن السابعة وكانت رقيقة متواضعة صافية المحيا كالسماء فى روما أيام الربيع .

أما الخطوة الرابعة لتقريبه للعرش فهى محاولة تهذيبه وصقله فعين الفيلسوف « سنيكا » مربيًا له ، وشرع الفيلسوف سنيكا فى التعرف على شخصية تلميذه ، ولم يكد يجلس إليه ويتصل به ويستمع لحديثه حتى هاله ما انطبع عليه الفتى من غرور وخيلاء وزهو فحاول أن يهذب نفسه ويثقف عقله ويروضه على البساطة والتواضع وصدق العاطفة ونبل الوجدان وقوة الإرادة ، ولكنه اصطدم بخيلاء نيرون وباعتداده الجنونى ، فكر راجعًا وحاق به الفشل ، وبدلاً من أن يستأصل جراثيم الفساد من تلميذه ، اضطر أن يبقى عليها لأن التحدى والتصدى لها سيجعله يعود مرة أخرى إلى منفاه بعيدًا عن روما ، وسيحرمه السلطة التى أصبح يتمتع بها طالما هو قريب من نيرون ومن العرش .

ولم يكن لنيرون غير صديقين من العبيد أحدهما حلاق ، والآخر راقص وكان الأول يعطره ويطيبه ، والثانى يعلمه فنون الرقص ويروضه على القفز والعد ويفسد أخلاقه ، ويسمم عقله بما يقص

عليه من حكايات فاضحة ونوادر شائقة وأخبار وحوادث تلهب المخيلة وتضطرم فى البدن نار الشهوة ، وتجرد الإنسان من كل فضيلة وتنزل به إلى درك الحيوان وحضيض الفطرة الأولى .

ونجحت الأم أن تجعل الإمبراطور كلوديوس يعلن تبنى نيرون كخطوة أولى لولاية العهد ، ثم أعلن نيرون وليا للعهد ، وبدأت فروض الولاء والطاعة ومباراة النفاق والكذب للتقرب لنيرون ، ذلك الفتى المغرور الذى أحس أنه يملك كل شيء قبل أن يصبح إمبراطورًا حقيقيًّا بيده السلطة والسلطان .

وأحست الأم تغيرا فى علاقات الإمبراطور كلوديوس بها نتيجة لتدخل بعض العناصر المعادية لها ، ومن ثم لم تلبث أن وضعت له السم فمات لتوه ، وأعلن نيرون إمبراطورًا ، وظنت الأم أن الطريق أصبح سهلاً أمامها لتسيطر وتحكم ، ولكنها لم تكن تعرف حقيقة شخصية نيرون ، الذى كان شريرًا فى لؤم وغدر ، وورث عنها كل الصفات القبيحة عنيف الأهواء فى وحشية وغلظة ، قاسيَ القلب متحجر العاطفة ، أنانى النزعة ، حسى الرغبات ، عابثًا مستهترًا يعيش طوع نزواته ولا يكلف نفسه عناء ضبطها أو إرسالها فى حذر وتوسط واعتدال .

وبدأ الصراع بين نيرون وأمه من أجل الاستئثار بالسلطة والحكم ، ومن سوء حظ أمه أن من كانت تغذى الصراع هى حفنة من

النساء أولها أخت كلوديوس الأميرة « دوميسيا ليبيدا » التى كادت تخضعه لتأثيره ، لولا ثورة أمه التى اتهمت الأميرة بممارسة السحر وانتهى الأمر بإعدام هذه الأميرة ، وقد تضايق نيرون ولكنه لم يكن يملك أن يفعل شيئًا ، فقد كانت الفوضى سائدة وحبل الأمن مضطربًا ومجلس الشيوخ أداة ولعبة كل عضو فيه يبحث عن ذاته ، وجباة الضرائب يسرقون ، والقوانين محتقرة والمحاسيب والأتباع يعيثون فى الأرض فسادًا ويلقون الرعب فى النفوس العامة .

والواقع الذى لا يمكن لأحد أن ينكره أن نيرون فى مستهل عهده كان يرغب رغبة صادرة من أعماق شبابه فى أن يكون منقذ الإمبراطورية وكان يقول « إذا كانت الفضيلة تمكننى من الفوز بإعجاب العالم وإخضاع الأمم والشعوب لسلطانى فلماذا لا أكون فاضلاً ولماذا لا تكون الفضيلة مثلى الأعلى ؟

وليس من شك فى أن نيرون كان فى تلك الحقبة من حياته متأثرًا بحب الشعب له وتعلقه به وروعة استقباله ، فأراد أن يظهر عرفانه بالجميل ، وأن يكون عند حسن ظن الجماهير وأستاذه به ويخطىء المؤرخون الذى يعتقدون أن نيرون كان فى تلك الفترة رجلاً دجالاً منافقًا إذ الحقيقة أن الشعور الطيب كان يملأ نفسه والنية الحسنة كانت ماثلة فى آرائه وأعماله وتصرفاته حتى أنه وقد اضطر يومًا إلى توقيع حكم بالإعدام على أحد رعاياه صرخ قائلاً :

« ليتنى ما كنت أعرف القراءة والكتابة » :

ولكن ما الذى حول نيرون إلى طاغية نسى نفسه ونسى آلهته :

إنه النفاق، والضعف الذى تظاهر به حكام الإمبراطورية له ، والتملق والوضع فى روعه أنه سيدهم جميعًا ، لقد كانت أنظار الكل متجهة إليه والأشراف يتملقونه ، ورجال الدولة يخطبون وده وكانت والدته تلهب فيه بوعودها البراقة نزعة الغرور والكبرياء .

وكانت تقول له هى وأستاذه سنيكا :

« لو أتيح لك ، واعتليت العرش يومًا فاعلم أنك ستقوم بدور إله ، حياة الشعوب وموتها سيصبحان فى قبضة يدك كلمة واحدة منك ، يمكن أن تقر السلم أو تثير الحرب سيحبك الشعب محبة الوالد ولكن سترزح تحت أعباء السلطة لأنك لن تستطيع وأنت تفكر فى سعادة روما أن تفكر فى سعادتك الخاصة ، هذا هو المجد الذى ينتظرك وإنه لمجد جدير بالآلهة » .

الطغيان فى عهد نيرون :

من العجيب أن نيرون سلط طغيانه على الساحة الداخلية ، ولكن الأقدار كانت بجانبه فى الساحة الخارجية حيث حالفه الحظ على تحقيق بعض الانتصارات الخارجية ، وتخليص الإمبراطورية من بعض الأخطار التى حاقت بها .

لم يهتم بإقرار صور العدالة أو الرحمة ، بل كان يسعى دائمًا إلى إذلال شعبه وتسخيره لتحقيق رغباته ، وقد قيل إن نيرون لما عرف عنه من شغف بالتظاهر وولع شديد بتسليط الأضواء على شخصه ، فقد كان أول من أدخل نظام الجوقات التى تدرب تدريبًا محكمًا على التهليل لمقدمه وتحيته بهتافات قصيرة فى نغمات إيقاعية .

تحكم نيرون فى عقائد الأفراد وفى مشاعرهم وإحساساتهم وتعرضت الإمبراطورية فى عهده لشتى أنواع الرذائل والنقائض وتضاعف الانحطاط بانتشار نزعة المحسوبية ، وتفشى الملق والرشوة ونسيان الفضائل التقليدية وزوال روح الدين الذى استحال مجرد رموز لا أثر لها فى حياة الأفراد .

وكانت المسيحية قد بدأت تتغلغل فى أوساط العامة واعتنقها بعض كبار الدولة سرًّا وكانت تعمل فى الخفاء ، وتبشر بنزعة روحية جديدة تتعارض مع النزعات السائدة فى الدولة وسميت مملكة نيرون مملكة الشيطان ، وبدأ نيرون يتعقب المسيحيين وما لم تكتبه كتب التاريخ عن اضطهاد نيرون للمسيحيين أكثر مما كتبته أقلام المؤرخين عن اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين ، لقد كان نيرون يتعقبهم ويضطهدهم ومن يقع منهم فى الأسر يدخل السجن ثم يقدم طعامًا للوحوش الضارية فى حفلات لاهية ..

ولعل السبب فى ذلك أنه وجد فى هؤلاء المسيحيين ما يمكن

أن يسرى على الناس حيث شاعت الفوضى فى دوائر الحكم وانتشر الرعب بين الناس وعم الاضطراب . ولقد كان من أثر النكبة التى حلت بنفسيته عقب أن اغتال أمه مرة بالسم فنجت وثانية بإغراقها فسبحت حتى وصلت الشاطىء سالمة ، ثم فى المرة الأخيرة أرسل لها مجموعة من الحراس فقتلوها بالسيف دون أن تنطق بآهة ألم ، كان من أثر ذلك أن أحس بوخز الضمير ، ولم يستطع طرد الأشباح التى كانت تحتل ذهنه وتعبث بعقله وتشرده فى أبهاء قصره مختنق الوجه زائغ البصر منكوش الشعر ، يصرخ ويهذى كالمجنون وغمرت روما موجة من الفساد ، فشاع الفجور بين السيدات وفشت الخنوثة بين الرجال ، وأطلقت الغرائز من عقالها ، وساد حكم اللذة وبات الشعب لا يفكر إلا فى ضروب اللهو وأفانين التمتع ، وتطورت نفس نيرون واستمالت إلى إرادة مرضية فى طلب اللهو عن طريق العنف وإحداث الألم ورؤية الجماهير هائجة وسماعها تصرخ صرخات جنونية محمومة شائنة ، قتل من المسيحيين فى روما وحدها أكثر من خمسين ألفًا قدمهم طعامًا للوحوش فى حفلاته ، وقتل من أعدائه فى أرمينيا التى هاجمها مرتين أعدادًا لا تحصى قدرها البعض بتواضع بأكثر من مائة ألف نفس .

قتل مستشاره الخاص « يورروس » بأن أرسل له طبيبه الخاص الذى دس له السم فى حلقه ، وأجبر الفيلسوف العظيم سنيكا

على الانتحار ، وقتل بريشنيكوس صاحب الحق الشرعى فى العرش ، واتهم زوجته أوكتافيا بالعقم دون أن يقربها بتاتًا ، وكانت أوكتافيا هى بداية ثورة الشعب ضده خاصة بعد أن طلقها ، وتزوج العاهرة بوبية ونادى بها إمبراطورية للرومان وكانت مطامع هذه المرأة سببا فى قتله أمه وفى جعله سفاحًا للمسيحيين ثم فى إحالته إلى رجل معتوه .

الطغيان فى التاريخ فنون وألوان ، والطاغية نيرون صورة مماثلة لحياة البهيمية اللا أخلاقية ، فقد باع كل شىء فى سبيل ، عربة اسمها اللذة ، باع الأصدقاء والأتباع تخلى عن الزوجة والأم ، قتل كل ما هو طاهر فى سبيل أن ينعم بالخطيئة ، كان لابد من نهاية للطاغية تتفق وللذنوب التى ارتكبها من أجل الاستمتاع بالسلطة .

عندما فقد الشعور بالأمن انعكس ذلك على سلوكياته تجاه نفسه وتجاه الآخرين فأصبح لا يحب أن يرى أحدًا آمنا ، وساد الخوف رعاياه وامتلأت السجون بالضحايا وصدرت آلاف الأحكام بالنفى والتشريد والإعدام وطارد الفلاسفة الرومان وأعدم بعضهم ، وزج بالكثير منهم فى ظلمات السجون .

ولم يستطع نيرون إخفاء عوامل ألمه وكبح جماح تصوراته وطرد أشباح ضحاياه من نسج تفكيره فكان ذهنه محاطًا بالأوهام ،

مليئًا بالوساوس يستغرقه التأمل الأجوف وتنهكه الرءوس الدامية وتجرد إحساسه وعقله من كل رجولة وكل إرادة وكل حياة استحال على مر الأيام إلى طفل حانق لا يعرف أسباب حنقه فكان منظره يثير الاشمئزاز ، ويبعث على السخرية ، وتوالت حوادث الاعتقال ، والتنكيل والإعدام وأصيبت أكبر الأسر فى أعز أبنائها وسحقت الارستقراطية الرومانية سحقًا وعمر البلاد الخوف ولاح شبح الموت فوق أرض الإمبراطورية يهدد كل شىء حى ..

وبدأ الإمبراطور يقع فى خطأ يتلوه خطيئة فى حق شعبه ودبر المؤامرات لإسكات كل صوت وثارت الجماهير تحطم رسوم « بوبية » الإمبراطورة الداعرة وتتوعدها بالعقاب العاجل والموت القريب وحاصر الجمهور قصر الإمبراطور وخشى الإمبراطور على نفسه بعد أن انخلع فؤاده من ثورة الشعب وأمر الجيش بطرد الثوار فكانت مذبحة قتل فيها أكثر من عشرة آلاف قتيل ، ولاذ الباقى بالفرار تتعقبه حراب الجنود .

ويهب المسيحيون للدفاع عن أنفسهم فيحرقون بعض أحياء روما ، وعندئذ يأمر الطاغية نيرون بحرق باقى أحياء المدينة بحجة تطهيرها من الفساد والضلال ويظل يغنى على قيثارته ، وهو يرى النيران تسيطر تمامًا على كل أحياء المدينة والناس تصرخ

مستغيثة وما من مجيب ، وضاع بجنون نيرون أعظم تراث تاريخي وأكثر من مائة ألف نسمة فاجأتهم النيران ولم يستطيعوا الهرب منها .

وبدأت ثورة الجيش ضده ، جيش أسبانيا تمرد ونادى بقائده « جلبا » إمبراطورًا وجيش جرمانيا ثار ، ونادى بقائده « كابثيو » إمبراطورًا وجيش أفريقيا ثار ونادى بقائده « مانسو » إمبراطورًا وزحفت جيوش جلبا على روما التى كانت قد أصبحت يبابًا خرابًا تنعى من بناها ، واضطرب نيرون واختلطت أوامره وصار يناقض بعضها بعضًا واستوثق أعوانه من جنونه ، ولما أعماه الغضب والرعب نادى بقتل حكام الأقاليم وذبح قواد الجيش مؤكدًا أن الكل خائنون وأنهم يستحقون الهلاك . وهدد بإلقاء مجلس الشيوخ للوحوش الكاسرة وكان لا يدرى ما يقول لفرط ما برح به الجنون واستحوذ الرعب على كل جارحة فيه ، قبل مصرعه كان يفر هاربًا من مكان إلى آخر بعد أن تخلى عنه الجميع ولم يجد ما يأكله سوى قطعة خبز جافة وقدح ماء ولم يجد ما ينام عليه سوى فراش أحد العبيد فتمتم لمن حوله قائلاً : هذا هو المصير الذى انتهى إليه سيد العالم .

وأدرك أن الجنود الثوار يتعقبونه فملكه الرعب حتى أدنى نصل خنجره من عنقه وجبن عن طعن نفسه فقام سكرتيره الخاص الذى

بقى معه إلى آخر لحظة وطعنه طعنة نجلاء انتفض على أثرها انتفاضة فظيعة ثم ضرب الهواء بذراعه اليسرى ثم تحشرج صوته وسالت من فمه الدماء ثم هوى على الأرض ، واصطدمت رأسه بحجر شجه فى اللحظة وعندئذ أعلن عن مصرع الطاغية نيرون وتنفست روما الصعداء ..

جنكيز خان

سفاح الشعوب .. ذو اللحية الحمراء !

مما لا شك فيه أن حكم الطغاة ثمرة تاريخية لغفلة الشعوب وعدم إدراكها لحقوقها وسوء فهمها لتطلعاتها وعجز قدراتها عن تحقيق أهدافها . ولكن أحداث التاريخ لا تجرى دائمًا بما يشتهى المتآمرون ، وليس فى علم التاريخ شىء اسمه المصادفة إذ لكل حدث أسبابه كما أن لكل معلول علة ، والقوى ليس قوى بنفسه وإنما هو قوى يضعف الآخرين ، أن الجبل لا يمكن أن يكون جبلاً إلا إذا كان هناك سفحًا .

وكتب التاريخ تحفل بالوقائع الدامية خلال حكم الطغاة ومن يريد أن يستطلع فظائع هذا الحكم عليه أن يقلب صفحات هذه الكتب ليجد أرقامًا لا تحصى من الضحايا والدماء لا يمكن أن توزن أريقت لأبرياء من رجال ونساء وأطفال ، وجنكيز خان إحدى الشخصيات التاريخية الرهيبة التى تركت بصماتها فى شكل حمامًا من الدم وجماجم من الضحايا وفاقت الشيطان فى أضرارها البشرية ، إنها شخصية جنكيز خان المغولى ، خاقان آسيا وأوربا وسيد السحاب وكبير الأباطرة المغول الرجل الذى ولد وفى قبضته قطعة متجمدة

من الدم ، والذى صرع أخاه عندما أخذ منه سمكة وقتل عمه عندما شعر أنه سينافسه فى حكم البلاد ، رغم أن هذا العم كان له الفضل فى حمايته ودرء أعدائه عنه .

وبادئ ذى بدء نسأل أنفسنا سؤالاً ، من هم المغول ؟ وما معناها اللغوى ؟ يرى البعض أن المغول كلمة مشتقة من لفظ محلى معناه الشجاع ، على حين يرى البعض الآخر أنها مشتقة من اسم زعيم ظهر فى صحراء جوبى — موطن المغول الأصلى فى شمال الصين — ظهر بين قبائل المغول ولقد كانت الطبيعة هى المعلم الأول للمغول ، حيث كانوا قبائل من الفرسان المترحلين يعيش أفرادها فى خيام ويعتمدون فى طعامهم بوجه رئيسى على لبن الخيول ولحومها وكانوا يمارسون الرعى والصيد ، وابتدأ تدريبهم على الشئون العسكرية بثورة على حكامهم فى إمبراطورية « الكن » التى كانت عاصمتها بكين وهى إمبراطورية صينية كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وتعلم المغول من الصينيين الشيء الكثير حتى وصلوا إلى درجة من التفوق العسكرى لم يسبقهم إليها أحد ، وكان للمؤرخين عدة آراء حول أساطير وخرافات المغول والإيهام الذى أحاط بنشأتهم وبظهورهم على مسرح التاريخ مما كان سببًا فى الغموض والإيهام الذى أحاط بجبروتهم وطغيانهم ، ولعل أهم صفة التصقت أنهم أهل مكر وخداع ولهم باع طويل فى الخيانة والدهاء .

ظهور المغول :

لعل القوى السياسية التى عاصرت ظهور المغول واستطاعوا التغلب عليها هى التى سهلت مهمة هؤلاء البرابرة المتوحشين لأن التاريخ يعلمنا دائمًا أن سقوط الدول يبدأ من الفساد نتيجة الفوضى وللشقاق وللخيانة التى تتعرض لها هذه الدول ، ولولا أن جنكيز خان وجد حوله قوى سياسية مضعضعة ما استطاع النصر عليها قط ، وأهم هذه القوى السياسية التى نذكرها ويهمنا أمرها بصفة خاصة لأنها دمرت على يد المغول ، وعانت على أيديهم هى دولة « خوارزم » وهى دولة إسلامية كانت تشمل بلاد التركستان ، وشمال الهند وفارس ، وكان يحكم هذه الدولة أمراء من الأتراك وقد أمتد سلطانها إلى مساحة شاسعة بين نهر الكنج ونهر دجلة ولكن هذه الدولة كانت مهملة فى أواخر أيامها وكان الصراع بين حكامها على أشده وأصبحت عاصمتها «سمرقند» مقرًا للمؤامرات وحتى أشهر مدنها هى بخارى ، وخوقند لم تسلم من التمرد والثورة نتيجة لظلم الحكام ، ولعل أبدع وصف لحال حكام خوارزم يمكن أن يستقى مما كتبه جلال الدين السيوطى المؤرخ المعروف فى كتابه « تاريخ الخلفاء » حيث قال :

كان الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ما فيهم إلا من هو مشغول بنفسه ، مكب على مجلس أنسه ، يرى السلامة غنيمة ، وإذا عن

له وصف الحرب لم يسأل إلا عن الهزيمة قد بلغ أمله من الرتبة وقنع بالسكة والخطبة ، أموال تنهب وممالك تذهب ، ولا يبالون بما سلبوا .

باختصار يمكن القول أن أعداء جنكيز خان الذين انتصر عليهم لم تكن تربط بينهم رابطة الألفة أو المحبة أو الانتماء لأنفسهم أو لأوطانهم وكان مبدأ التضحية بالنسبة لهم شكلاً لا عقيدة ولذا لم يلبثوا أن تفرقوا أمام المغول .

من هو جنكيز خان :

يعتبر جنكيز خان من أكبر الغزاة والبغاة الذين بنوا أمجادهم على جثة التاريخ ، ظهر كالإعصار العاصف وعذب البشرية ، وكأنه ينتقم لنفسه ولوالده ، وأحب سفك الدماء الذى قيل أنه كان يحلو له أن يشرب دماء ضحاياه ، ولعل نشأته والظروف التى أحاطت به تفسر لنا تلك القسوة التى اتصف بها ، وكثرة عدد الضحايا الذين سقطوا تحت أقدام جيشه وسيوف جنده والتى يقدرها بعض المؤرخين بأنها وصلت إلى نحو خمسين مليونًا من الأنفس ما بين قتيل وجريح وأسير خلال ربع قرن من الزمان لم تر البشرية أبشع منه على الإطلاق خلال تاريخها الطويل .

ولقد ولد جنكيز خان عام ١١٥٥م ، وهو ينحدر من سلالة ممتازة من المغول هى سلالة « البورشيكون » تلك السلالة التى

تقول قصص المغول ورواياتهم أنها تنحدر من سلالة الآلة التى كانوا يعبدونها ، وكان جد جنكيز خان يطلق عليه « كابول خان العظيم » ولما مات هذا الجد تولى والد جنكيز خان زعامة القبيلة والتى كانت تعرف باسم « التمرجى » وكان هذا الأب يدعى « يسوجاى » الحكيم الداهية .. وكان يحلو له أن يتريض على شاطىء نهر « الآتون » حاملاً صقره على ذراعه وذات يوم رأى أحد أعدائه من قبيلة « الماركت » التى تنتمى إلى سلالة أهل « التندرا » الأشداء ومعه عروسه التى كانت تدعى « هولون » ، وكانت جميلة بشكل أطار صواب يسوجاى فاختطفها من عريسها وتزوجها ، وهذه العروس هى والدة جنكيز خان حيث لم يمض على زواجها تسعة شهور ، وكانت قد حملت بهذا المرعب الذى دوخ التاريخ بأفعاله وقيل إنه يوم مولد جنكيز خان انتصر والده على قبائل الماركت هذه بعد غزوة مفاجئة لمقرها وكان ضمن الأسرى زعيم « الماركت » الشجاع ، الذى ظل يقاوم حتى النهاية إلى درجة أعجبت « يسوجاى » ومن ثم عندما بلغ الأب نبأ ولادة ابنه أطلق عليه اسم الزعيم الذى أعجب بشجاعته وهذا الاسم كان « تيموجن » وفى لغة المغول تعنى هذه الكلمة الصلب المتين ، ولقد قيل إنه يوم خروجه من بطن أمه كانت يده تحمل بقطعة كبيرة من الدم المتجمد ، ولما فطمته أمه تغذى على ألبان الخيل والماشية ، وكانت الطبيعة قاسية عليه كما كان الإنسان أشد قسوة مما جعله فى خوف دائم وحذر شديد من كل من أحاطوا

به ، وبدأ يسمع منذ الصغر قصص الحرب وتعلم إجادة الصيد والاشتراك فى حلبات سباق الخيل والمصارعة وقذف السهام وكلف منذ الصغر بحراسة الخيل ورعى الماشية واستكشاف المراعى ، ثم أسندت إليه مهمة المشاركة مع غيره فى مراقبة الأفق من فوق التلال ليخطر القبيلة باحتمالات أى عدوان عليها مفاجئ من الأعداء وكان ذلك يعنى تحمل الآم الجوع والحرمان بضعة أيام والبقاء على حافة الجبل فى ليالى الشتاء القاسية وسط عواصف ثلجية عنيفة ولكن ذلك زاده صلابة وعلمه الصبر ، وقيل إنه كان أمهر رماة السهام بين المغول ولم يفقه فى هذا إلا أخاه الشقيق « كاسار » ، ولقد تميز جنكيز خان – كما هى صفات كل الطغاة – بالذكاء والخبث والمكر والدهاء واشتهر بين أقرانه برسم الخطط وانفرد من دونهم بفكرة رهيبة هى أن الحياة للقوى وحده والموت والاحتقار للضعيف ، لم يتعلم جنكيز خان فى مدرسة ولذا لم يكن يعرف القراءة أو الكتابة ولكنه تعلم فى مدرسة الحياة ، . وكان جنكيز خان ذا عينين رماديتين تميل إلى الزرقة وجبهة عريضة وشعر أحمر مسترسلا جدائل طويلة وراء كتفيه ..

ولعل أول صدمات الحياة التى واجهت جنكيز خان وهو صغير هى موت جده مقتولاً بالسم حيث دس له السم إمبراطور الصين ثم مقتل أبيه غدرًا على يد بعض القبائل المعادية وكانت الصدمة الثالثة هى انتزاع الزعامة من أسرته وتخلى أتباع أبيه عنه حيث

أجمع زعماء القبيلة عقب مقتل أبيه وانتخبوا منهم زعيمًا جديدًا .. وأحس جنكيز خان بثقل الحياة وبدأ يرتعد من المستقبل الغامض ، الذى يحيط به وشعر بصيحات الثأر تردد فى عنف داخله وأحس بالكراهية لأولئك الذين تخلوا عنه بعد وفاة والده وتجىء الصدمة الخامسة عندما يشعر أن أخاه غير الشقيق « بايكتار » يطمع فيه فقام من شدة غضبه بقتله وهنا خاصمته أمه مما أثر على نفسيته تأثيرًا كبيرًا حيث قالت له عقب أن ارتكب جريمته :

« إنك وكاسار – تقصد أخاه الشقيق – كالكلاب الجائعة تنقض عل كل ما تلقاه ، والأفاعى تزدرد ما يقابلها حينا ، والذئاب تنهش ما تصادفه في خلال العاصفة ، أما كان الأولى أن توجه السهام إلى صدور أعدائك » ، وكان خصام الأم الذى طال أكثر من سنة له دور كبير فى نزعات الشر التى شكلت شخصية جنكيز خان فيما بعد ، وتجىء الصدمة السادسة عندما يتمكن أعداؤه من الماركت من أسر زوجته التى كان قد تزوجها من قبيلة « أولوهواود » المغولية وكانت تتمتع بجمال فائق ..ذات وجه نضير ونهد بارز وقد مياس واسمها «يورتاى» ، أسرها أعداؤه وكأنهم يعيدون مسرحية خطف والد جنكيز خان لعروسه هولون أم السفاح ، وإن كان جنكيز خان قد استعاد زوجته فيما بعد إلا أن هذه الحادثة كان لها تأثير سيئ على أعدائه من قبائل الماركت والذين لم يسلموا من سيفه عندما ضحك له القدر وابتسم له الحظ

وتحالف معه ، أما الصدمة السابعة التى أثرت فى شخصيته فهى حصار عدوه اللدود « تارجوناى » زعيم قبيلة « التايدجوت » المغولية لأسرته في الجبال وإجبار أفراد الأسرة على تسليمهم جنكيز خان أسيرًا نظير فك الحصار حيث قيدوه بالسلاسل ووضعوا في رقبته نيرًا ثقيلاً وسجنوه ، ورغم نجاحه فى الهروب فيما بعد إلا أن قسوة أعدائه فى معاملتهم له جعلته يفقد معانى الرحمة فى معاملته للآخرين ولعل هذه الصدمات كلها قد قتلت روح الحياة داخل نفس جنكيز خان وجعلته يشعر بالأنانية المفرطة وأعطته مقاييس عدائية للتعامل مع البشر .

وابتسم الحظ لجنكيز خان بعد أن فر من الأسر وبدأ يجمع حوله بعض الأنصار وكان هربه أسطورة لدى قبيلته مما جعل الكثيرين من الشباب يسعون وراءه ، ورأى هو أن يتحالف مع عمه طوغرل خان حيث كون له جيشًا بلغ ثلاثة عشر ألف فارس أخذ يدربهم على فنون الحرب ويعلمهم أسرارها وشاعت أسطورة بين قبائل المغول تنبئ بخروج عاهل عظيم يوحدهم ويغزو بهم العالم ، وأخذ المنشدون فى كل مكان يتغنون بقرب ظهور هذا العاهل العظيم ، وقد غذى جنكيز خان هذه الأسطورة معلنا أن السر فى ضياع المغول وخضوعهم لغيرهم هو أنهم رُحّل وأن المغول يمكن أن يسودوا العالم لو اتحدوا وأن القوة وحدها لها الغلبة بين البشر ، وبقواته المدربة دخل جنكيز خان أول معاركه ضد قبائل « التايدجوت » عرفت باسم

معركة المركبات لأنه أتخذ من العربات ستارًا للدفاع عن جيشه وجنوده ولم يكد ينتصف الليل حتى خرج منتصرًا حيث ألقى بزعيم القبيلة « تارجوتاى » وعدوه اللدود فى إناء من الزيت المغلى وقتل كل أسراه ولم تلبث قبائل المغول أن تقدمت عن خوف ورهبة لإعلانها الولاء له وبذا توحدت قبائل المغول كلها تحت قيادته ولما أحس بأنه فى غنى عن تأييد عمه طوغرل خان قام بقتله بلا رحمة وأصبحت كل صحراء جوبى فى قبضة يده وأعلن لمن حوله : « لقد علمنا كبارنا أن القلوب المتنافرة والعقول المختلفة لم تجمع فى جسد واحد غير أنى عازم على تحقيق هذه الغاية بعد فرض سلطاتى على كل من حولى » .

ومضى لتحقيق هذا الهدف تارة بالسياسة وتارة بالكياسة ومرة بالوعيد والتهديد وأخرى بالعهود والوعود وتلفت حوله لأبناء عمومته من التتار حيث دخل معهم فى تحالف ، وبذا تهيأت له الفرصة لتكوين جيش قوى شاعت حوله الخرافات بأنه جيش لا يقهر وأن الأبالسة تحارب معه وأن القسوة تجعل من الأفضل لأعدائه أن يستسلموا له وقد جاء فى وصف هذه الخرافات لجيش جنكيز خان : « أنهم يطعمون لحم البشر ولهم جماجم من نحاس وأسنان من صخر وقلوب من فولاذ ، تقذف أفواههم الحمم وتشرب خيلهم الندى ، لهم أجنحة كالطير » وقد اختلفت تقديرات المؤرخين حول عدد جنوده ، ولكنه بلا شك كان لا يقل عن المائة

ألف وبعد غزوة الصين زاد العدد إلى ما يقرب من ربع مليون جندى .

ليس من المبالغ فيه أن يطلق على جنكيز خان أنه السفاح الأعظم فى تاريخ الجنس البشرى لأنه كان يبيد المدن ويسويها بالأرض وينهب الثروة ويقتل الناس ويجز الرقاب معنويًا وماديًا وقد اعتمد على تشتيت عقلية خصمه بمفاجأته ومباغتته وكان وحده يحصل على ثلث الغنائم فى البلاد المفتوحة ويترك الثلثين لقواده وجنوده حيازة كل ما يشتهون .

كانت إمبراطورية الصين هى أول قوة سياسية هرمة سقطت تحت أقدام جنكيز خان سنة ١٢١٤م ولم يمكث جنكيز خان فى قصور الصين ولا مدائنها التى فتحها بحد السيف ووطأتها سنابك خيله بعد أن قتل منهم ما يقرب من نصف مليون لكنه عاد إلى بلاده فى صحراء جوبى واتخذ من مدينة « قرة قورم » عاصمة له ورفع شعارًا لإمبراطوريته « إن فى السماء قوة الشمس أما على الأرض فقوة الخان » وحمل وهو فى سن الثامنة والأربعين لقب جنكيز خان ، أى مبعوث السماء وأصبح هذا الاسم يترجم إلى أنه « أعظم الحكام وإمبراطور البشر أجمعين » ، وانتخب من رعاياه سنة ١٢٠٦م (٦٠٣هـ) بلقب السيد الأعلى ورب القوة والبطولة ، ومقر عاصمته « قرة قورم » ومكانها – الآن – منغوليا .

وجاء الدور على إمبراطورية خوارزم الإسلامية ، وقد أرسل جنكيز خان بعض رسله إلى الإمبراطور خوارزم ، ولكن هذا بغباء قتل الرسل ، وصحيح أن جنكيز خان كان سيقوم بغزو خوارزم سواء وقعت هذه الحادثة أم لم تقع ، ولكنه بعد وقوعها إزداد مرارة واشتياقًا للانتقام الرهيب ، ولقد وصف مؤرخ معاصر ما حدث للمسلمين فى خوارزم على يد جنكيز خان وذلك المؤرخ هو ابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » حيث قال : « من يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا .. لقد شقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة وقتلوا النساء والرجال والأطفال . « وصورة الهجمة الشرسة للطاغية جنكيز على المدن الإسلامية هى أخطر ما قام به الطاغية المغولى فى حياته .

ولن يستطيع قلم أديب برومانسية أو فى شكل الدراما الإنسانية أن يصف ما حدث من قوات جنكيز خان للمدن الإسلامية فى دولة خوارزم ، كما أن ذكر التفاصيل تصيب النفس البشرية بالتقزز والغثيان وتجعل اللعنة تخرج من ألسنتنا لتنصب على قبر جنكيز خان .

لقد دمر المغول بقيادة جنكيز خان مدينتى : لاهور ، ومولتان تمامًا وسويتا بالأرض وتركوا كل شىء يبابًا خربًا ، وكان فتح « بخارى » يومًا أسود فارقت فيه الأمهات أولادهن والزوجات

بعولهن والعذارى آباءهن وأخذن جميعًا لمصير مجهول هو الخضوع لشهوات بهيمية من جند قساة لا تربطهم بالإنسانية رابطة ولا رب لهم إلا الشيطان ، وأحرقت المدينة بأكملها ، وقتل رجالها وترك الأطفال فى العراء مشردين طعامًا للذئاب والوعول ، وحملوا إلى صحن المسجد الكبير فى المدينة عدة صناديق تحوى نسخًا كثيرة من القرآن الكريم ، وداسوها بحوافر خيولهم واحضروا قرب الخمر والمغنين إلى المسجد ، وأخذوا يشربون ويطربون وكبار رجال المدينة وعلماؤها – قبل أن يقتلوا – يمسكون بعنان الخيل إمعانًا فى إذلالهم وأتوا بعلف الخيول لإطعامها داخل المسجد ، وأمر جنكيز خان بعد ذلك بجمع سكان المدينة وخاطبهم قائلاً :

« إنى نقمة الله على الأرض ، ولابد أنكم تستحقون العقاب لأن الله ساقنى إليكم وهنا أدرك مسلمو بخارى بعد فوات الأوان أن الانحلال والفوضى الاجتماعية وعدم التمسك بشريعة الله هى سبب ضياعهم ، لأنه بلا شك يصدق قول « ومن أعمالكم سلط عليكم » ، ثم قام جنكيز خان بسلب أموال بخارى وكنوزها وطلب من أهلها مغادرة المدينة لا يحملون معهم إلا ثيابهم التى يلبسونها ، ويصف ابن الأثير سقوط بخارى قائلاً : « وكان يومًا عظيمًا من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق واقتسم المغول النساء ، وأصبحت بخارى خاوية على عروشها » ، وحدث لسمرقند ما حدث لبخارى من نهب وسلب

وسبى النساء وقتلوا من لم يصلح للسبى منهن وفى مدينة نسا فى خراسان قتلوا من أهلها سبعين الفًا أما الرى فقد قتل المغول كل سكان المدينة بل وانقلبوا على بعض الموالين لهم الذين سهلوا لهم فتح المدينة والاستيلاء على قلاعها .

مدن الأحزان الإسلامية :

لقد كانت هناك مدنًا إسلامية خربت تمامًا ، وخربت عن آخرها ودمرت جمادها وحيوانها وإنساها على يد جبابرة التاريخ بقيادة الطاغية المغولى جنكيز خان عدو البشرية رقم واحد ، نذكر من هذه المدن مدينة « ترمذ » الإسلامية إحدى مدن دولة خوارزم ، حيث شق المغول بطون كل سكان المدينة الأحياء منهم والأموات بسبب أن امرأة أرادت أن تنجو بنفسها فادعت أنها تملك جوهرة ثمينة بلعتها آملة أن يأخذوها أسيرة حتى تضع هذه الجوهرة ، ولكنهم شقوا بطنها وشقوا بطون كل النساء ورجال وأطفال المدينة ظانين أنهم يخفون كنوزهم داخل بطونهم ، أما المدينة الثانية من مدن الأحزان فهى « مرو » والتى خان حاكمها أهل المدينة ، وقام المغول بتقسيم سكانها ثلاثة أقسام الرجال والنساء والأطفال ثم أجبروا الرجال على الرقاد مشبكون أذرعهم وراء ظهورهم ، ووزعوهم فى شكل حصص على جنودهم حيث قام كل جندى بذبح حصته ، وابقوا على تجار المدينة وكان عددهم ستمائة ، ثم بدءوا تعذيبهم

بأبشع ألوان التعذيب ، لكى يعترفوا عن أماكن كنوزهم وأموالهم المخبأة ، ولم يبقوا من هؤلاء التجار أحياء إلا على أربعة فقط لحاجة الجيش إليهم ، ومن اختبأ من السكان عاش بلا مأوى وبلا طعام أو شراب ، حيث مات جوعًا أو أنتظر موته على يد الذئاب ، التى كانت تشم رائحة الغزو المغولى ثم تكمل عملهم الدنىء حيث تقضى على ما بقى من الأحياء ، وقد لحق ذلك القدر بعدة مدن على التوالى ولما تراءى لبعض السكان فى إحدى تلك المدن إنقاذ حياتهم بالرقاد بين جثث القتلى تنبه المغول لتلك الحيلة التى اكتشفوها على يد أحد الخونة ، ومن ثم صدرت الأوامر بضرورة فصل رءوس الأهالى عن أجسادها عند الغزو ، لقد استخدموا كل حيلة ماكرة وكل طريقة خادعة وكل وسيلة خبيثة لاستئصال البشر .

ومن تلك الحيل أنهم أرغموا أحد المؤذنين من أسراهم قبل أن يقتلوه أن يعتلى المئذنة وينادى للصلاة فخرج من الأهالى من كان مختبئًا ظانًّا أن المغول قد فكوا الحصار ، وتركوا المدينة فما كان من الطغاة إلا أن حصدوهم عن آخرهم وبلا رحمة والضحكات الشيطانية تخرج من أفواههم وكأنهم فى حفل عرس .

أما مدينة « باميان » فقد ظلت خالية من السكان لمدة خمس سنوات بعد أن ذبح جنكيز خان كل مخلوق بشرى ضمته جدران المدينة ، وأمر بهدم قصورها ومساجدها ومنازلها وقلع زرعها :

وكان ذلك لأن المدينة قاومت سكان الحصار وجاء سهم إلى أحد أحفاد جنكيز خان الذى كان يحاصر المدينة فأرداه قتيلاً .

وبعد أن أباد جنكيز خان معظم سكان مدينة « هراة » سأل إمامها قائلاً :

« هل يبقى اسمى خالدًا بعد موتى » قال هذا الإمام « يبقى اسم الإنسان ما بقى هناك سكان » .

ولكن إحقاقًا للتاريخ نقول إن سلطان خوارزم لم يقف مكتوف الأيدى – رغم أنه كان السبب الرئيسى فى انحلال دولته – بل قاوم ولكنه لم يستطع فحمل راية الكفاح ولده جلال الدين ولقد أعجب جنكيز خان بشجاعة جلال الدين قائلاً عنه : « سعيد من يلد مثل هذا الابن » .

ولقد اعتاد المغول قبل مغادرتهم أى مدينة إسلامية أن يحرقوا ما تبقى من غلال فيها أو محصولات أخرى حتى يطمئنوا إلى أن من غابت عن رقبته سيوفهم مات جوعًا ، وفى خوارزم وهى آخر مدن الأحزان الإسلامية التى شاء قدرها أن تقع فى يد المغول حاصروها ستة أشهر ، وقد تكبد المغول خلال ذلك الحصار خسائر جسيمة ومن ثم قاموا بعمل بشع حيث فتحوا السد الذى كان يحجز مياه نهر جيحون عن المدينة فسرت المياه لتغرق البلدة ، وتهدمت أبنيتها على من فيها وبقى موضعها ماء ولم يسلم أحد

من أهلها وهكذا تحول مجرى النهر عن طريقه الطبيعى مما حير الجغرافيين مدة طويلة .

لقد كانت حروب المغول الوثنيين ضد المسلمين مذابح بشرية يحركها إنسان معقد نفسيًّا وتحكم عقليته المريضة رواسب من الأحقاد والكراهية لكل لبشر ، وكان من تبقى على الحياة بعد تلك المجازر يعيش محطم الروح يختبىء خوفًا من عودتهم وبلغ بالناس الذعر حدًّا جعلهم يخشون مغادرة هذه المخابىء حتى تصل الذئاب لتنهش جثث القتلى .

لم تكن الرحمة ديدنه وطالما حذر قواده أن تعرف قلوبهم الرأفة مع خصومه سبيلاً مؤكدًا إن الطغيان والبطش وحدهما كفيلان بإخضاع أعدائه وإذلالهم وموضحًا لهم أن العدو المهزوم لن يرضى بالخضوع المطلق إلا فى ظل الخوف ، ولكنه نسى أن من السهل أن يغزو الإنسان بحد السيف ولكن لن يمكنه الحكم إلى الأبد بنفس الطريقة ..

ولكن هل توقف المغول عن غزواتهم بعد سقوط إمبراطورية خوارزم الإسلامية .. كلاً بل لقد استمرت الفتوحات فى ميادين أخرى للحصول على غنائم جديدة وكانت الروسيا هى أهم هذه الميادين .

لقد اشتهر جنكيز خان بأنه أحد الفاتحين القلائل الذين نجحوا فى غزو روسيا ولعله بهذا التفوق على زميليه فى الطغيان نابليون وهتلر

اللذان فشلا فى تحقيق ذلك الحلم ، لقد اندفع جنكيز خان نحو بحر قزوين ، ثم جوبا ، حتى لاهور وانطلقت جحافله نحو الروسيا ، ولما تصدت له قوة روسية آتية من « كييف » أبادها جنكيز خان نهائيا بل لقد أسر غردندوق « كييف » نفسه ، وهكذا ظهر المغول على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود ، وذعرت القسطنطينية ، ولما حاولت روسيا جمع جيشها من جديد بلغ تعداده حوالى ٨٢ ألف مقاتل لم يستغرق إبادته من الخان أكثر من أيام فقط بعدها دانت كل روسيا تقريبًا لجنكيز خان ، بل لقد واصل المغول فيما بعد زحفهم حيث استولوا على بولندا ونهبوها وأيضًا المجر ..

وفى آخر غزوات جنكيز خان .. قتل فى معركة واحدة فى منطقة الصين الغربية نحو ثلثمائة ألف رجل .

المؤرخون . . وجنكيز خان :

من البداية نحن لا نتفق مع وجهة نظر بعض المؤرخين العسكريين إلا فى بعض النقاط التى منها :

١ — أن جنكيز خان استخدم الكثير من التجار والمترجمين فى أعمال الجاسوسية وأنه أول من أنشأ فرق العاصفة فى التاريخ والتى أهم وظيفة لها الضربة المفاجئة للعدو ولقد عرفوا عن أعدائهم أكثر مما عرف عنهم أعداؤهم .

٢ — أن انتصارات المغول تعود إلى أنهم تعلموا من أخطائهم وإلى أنهم تعلموا وتربوا فى عالم التجربة اللا محدود وحصلوا على زاد من المعرفة العملية التجريبية .

٣ — أنهم توارثوا حكمة قذف أولادهم إلى سفينة الحياة .

٤ — أن جنكيز خان استعان بمجموعة من المستشارين العسكريين أفادوه تمامًا ورسموا له الكثير من الخطط العسكرية .

ونحن لا ننكر أن أعمال جنكيز خان من حيث الإدارة والحكم والقيادة لازالت سرًّا لم يمط اللثام عنه حتى الآن ولغزًا يحتاج إلى كثير من الدروس والبحث والفكر العميق ولكن لم نستطع بأى حال من الأحوال أن ننكر عليه شدة حراسه وحدة ذكائه ولكن أيضًا فلنسمع ونقرأ ما يقوله عنه الجنرال الأمريكى « دوجلاس مكارثر » الذى اشتهر باسم قاهر اليابان فى الحرب العالمية الثانية .. قال : « ولو محيت جميع أخبار الحروب من صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان لبقى لرجال الحروب معين لا ينضب من أنفس المعلومات عن تعبئة الجيوش وتنظيمها ، ومهما تغيرت أسلحة القتال فلابد من الرجوع إلى الماضى ومطالعة كتب التاريخ ليحذق الجندى فنون الحرب ومبادئها الأساسية التى لا تتغير ولن تجدها ممثلة فى غير مسيرة إمبراطور المغول منذ سبعمائة عام .

رأى صينى :

ويرى الكاتب الصينى « ف . يان » حامل جائزة ستالين للسلم » أن من الخطأ الشائع أن يقال إن جيش المغول كان جيشًا من الهمج يهاجم كما تهاجم قطعان الذئاب بلا نظام ، والحق أن جيشهم كان منظمًا تنظيمًا دقيقًا يفوق غيره من الجيوش وكان لتخاذل أعدائهم وانحلال الملوك من حولهم والغرور وجو الملق والضعف الذى انقسموا فيه والفساد والترف سببًا مساعدًا على انتصار جنكيز خان .

ونحن وإن كنا نتحفظ على الجزء الأول من كلام الكاتب الصينى إلا إننا نتفق معه تمامًا فى الجزء الثانى من عباراته ، والذى لا شك فيه أن جنكيز خان نجح فى استقطاب قادة جيشه ، أخلصوا له ونفذوا أوامره ، نذكر منهم سابوتى الحكيم الذى قال عنه المؤرخ الحربى ليدل هارت إنه أعظم القادة العسكريين فى التاريخ كله وسماه المعصوم من الخطأ وتكلم فى كتبه عن معاركه الظافرة فى إيران ، وجورجيا ، والقوقاز وجنوب روسيا ، وبلغاريا وكان ضمن قواد جنكيز خان « موهولى » المحنك « وشبيه نوبون » النارى المدفع وبرشو الأمين ، ولكل منهم فى ساحات القتال سجل رهيب من الإرهاب والقسوة وسفك الدماء .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أنه تظهر فى حياة كل طاغية شخصية معاونة تدفعه إما إلى مزيد من السلبيات ، أو تحاول

أن توقفه عند حدود لا يتعداها فى طغيانه أو أن تهيىء له القيام ببعض الإيجابيات ، ولقد كانت شخصية « بليو تشوتزاى » هى اللمحة الإيجابية فى حياة جنكيز خان ، وهو سياسى محنك كان فى خدمة إمبراطور الصين ووضع نفسه فى خدمة جنكيز خان ، وقد استطاع هذا السياسى أن يروض نسبيًا من شراسة المغول وقيل إنه أنقذ من التدمير مدنًا لا تحصى ومنتجات قيمة لا حصر لها ، ودأب على جمع السجلات والمخطوطات والنقوش إلى درجة جعلت بعض المؤرخين يطلقون عليه أعظم أبطال السياسة فى التاريخ ، ولقد كان « بليو » عبقرية جريئة إلى جانب عبقرية سياسية ، ويعزى إليه الفضل فيما استمتعت به الأداة الحربية المغولية من قدرات خاصة .

نهاية الطاغية :

فى عام ١٢٢٧م توفى جنكيز خان عن ٧٢ عامًا بعد أن امتدت إمبراطوريته من المحيط الهادئ إلى نهر الدنيبر على أنها شأن كل الإمبراطوريات التى أسسها الرحالة الرعاة كانت قبل كل شيء إمبراطورية عسكرية وكانت هيكلاً وإطارًا أكثر منها نظام حكم وكانت تتمركز حول شخصية العاهل أكثر من أى شيء آخر وكانت علاقتها بجموع الشعوب التى حكمتها علاقة ضرائب تجبى فقط .

لا ننكر أنه كان بسيطًا فى حياته ولم يكن يميزه عن رجاله سوى قرط ثقيل من الذهب ، يتدلى من أذنه وحصانه الأبيض ورايته البيضاء ، التى جعلها عنوانا لسطوته وسلطانه وعليها ذيول تسعة وعول ، ولم يعرف عنه الإسراف فى طعام أو ملاذ وقد أثر عنه قوله : « إياك .. إياك .. وشرب الخمر أكثر من ثلاث مرات فإن استطعت فمرتين أو مرة ، ويحسن إذا لم تذق الخمر على الإطلاق » ، وإذا كان لجنكيز نسبة فضائل فإنها لا تتعدى ٢٠٪ من تكوين شخصيته ، والبقية كانت كلها قيما مرفوضة من عدالة السماء ومن قوانين الرحمة ، لقد كان عنصريا حيث قال : « إن غاية ما أتمناه هو رفع شعبنا إلى مرتبة السيادة على العالم » وقال عن نفسه « فلينحب العالم لكى يسعد جنكيز خان » « ... » يحيا السيف ... تحيا الحرب ويكفى أن نقول إنه كان معقدًا نفسيًّا مليئًا بالكراهية وحب سفك الدما .. وأثناء مرضه الذى أدى به إلى الموت أمر بتدبير مؤامرة لقتل ألد أعدائه عندما كان فى زيارته ولم يحترم وعود الصلح ولا كلمة الشرف لتوفير الأمان له ، وهكذا من طباع الطغاة وصفاتهم الغدر والأنانية .

مات وهو يحس بالوحدة والألم والحزن على ولده البكر الذى توفى فى برارى روسيا ، ويكاد الرحالة الإيطالى ماركو بولو وحده دون جمهرة الكتاب الذين أرخوا لجنكيز خان هو الذى ينفرد

بالقول إن الخان قد مات متأثرًا بجراحه عقب إصابته بسهم فى ركبته أثناء حصاره لإحدى القلاع فى إقليم « سونج » الصينى ولكن معظمهم يجمعون على إن موته جاء إثر مرض أضطره للاعتكاف فى خيمته وذلك حزنًا على أن ابنه مات قتيلاً بيد أخ جنكيز خان أى أن العم قتل ابن الأخ ، مات جنكيز خان واستغرقت عملية دفنه نحو مائة يوم فى جبل « الطاى » وقتلوا كل من صادفوه من إنسان أو حيوان وهم فى الطريق إلى دفنه من منطلق عقيدتهم التى تقول إن كل من يقتلونه يصير خادمًا للراحل فى الحياة الأخرى ، ويقال إن قبيلة بأكملها قد عفيت من الخدمة العسكرية أنيط بها مهمة العناية بالمقبرة وأن البخور ظل يحترق بلا انقطاع .

لقد عاش جنكيز خان حياة مليئة بالدسائس والقلق والتآمر ، لم يصادق أحدًا ولم يثق فى أحد ودفع ثمن جزء صغير من آثامه وأخطائه وخطاياه ، ولكن مما لا شك فيه أن الشياطين كلها حزنت وأعلنت الحداد على فراقه ، ولكن أيضًا فإن البشرية قد ارتاحت منه وستظل لعنة التاريخ تلحقه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًّا .

الحجاج بن يوسف الثقفى

طاغية بنى أمية

تظل الشعوب الخاضعة للطغاة تحلم بيوم الخلاص وتنتظر الفجر ، لأنها تؤمن بأن الظلام لا يدوم وأن الظلم مهما طال فهو قصير الأمد فى حياة الأمم والدول والمجتمعات .

والحجاج بن يوسف الثقفى شخصية من لون جديد لم يكن على عرش دولة ما ، ولكنه كان أقوى من الجالس على العرش ، وأطغى من المتحكم فى السلطة وأطغى من صاحب الصولجان ، إنه الحجاج بن يوسف الثقفى سيف بنى أمية على أعدائهم والذى قال عنه الحسن البصرى – شيخ الإسلام الذى بلغ فى العلم والتقوى حدًّا جعله أشبه التابعين بالأنبياء – قال عن الحجاج :

«يا أخبث الأخبثين وأفسق الفاسقين ، أما أهل السماء فمقتوك وأما أهل الأرض فغروك ، أبى الله تعالى للميثاق الذى أخذه على أهل العلم ليبينه للناس ولا يكتمونه » .

ومن النادر أن نقرأ كتابًا فى التاريخ الإسلامى إلا وجدنا للحجاج فيه ذكرًا كثيرًا أو قليلاً ، هذا الرجل خرج من سواد الأغمار إلى

ضوء القيادة والرياسة والحكم والشهرة وأصبح بفضل ملكاته وحدها من سادات عصره وأصحاب القول فى شئون الجماعة الإسلامية على أيامه .

وكعادة معظم الطغاة ، فإن أفعالهم وأعمالهم وانفعالاتهم وما يورثه ذلك لهم من الأمراض فإنه يموتون فى سن مبكرة ، هكذا مات نابليون وهكذا مات أتاتورك ، وهكذا مات روبسبير ، وهكذا مات نيرون ، نعم لقد مات الحجاج وهو لم يتجاوز الثالثة والخمسين .

عاش أعظم أحداث الدولة الأموية ، ووقع فى أخطاء اشتد نقد أهل عصره لها ولكنه لم يعبأ بشىء لا بأعراض الناس ،ولا بالهزائم والنكسات التى ألمت به بل سار فى طريقه ، الغرور يعميه والثقة المفرطة تجعله غير هياب لكل ما أحاط به من نوائب الدهر وقساوة الزمن مما كان سببًا فى غضب الناس عليه ووضعه فى عداد الجبابرة الطغاة .

كان الحجاج ذكيًا فطنًا ، ووضع نفسه فى خدمة الدولة الأموية مؤمنًا بأن خلافة بنى أمية خلافة شرعية ، ورغم أنه كان يرى نقائض بنى أمية وأخطاءهم إلا أنه كان يراهم أفضل وأقدر من العلويين من منطلق إن الخلافة مسئولية وليست وراثة لأن الكفاية وحدها تعطى الحق .

وكان جمهور المسلمين غير راض على خلافة بنى أمية إذ أن معظمهم كان يرى أن بنى أمية اغتصبوا الخلافة ، وأنهم يعتمدون

على القوة العسكرية لتثبيت حقوقهم وفاتهم أن الملك لا يقوم على القوة إلى ما لا نهاية وأن القوة لا يمكن أن تدوم إلى الأبد وأن العنف لا يحل المشاكل الداخلية ، لأن الطغيان يزيدها تعقيدًا ولا سبيل لحل المشاكل الداخلية لأن الطغيان يزيدها تعقيدًا ، ولا سبيل لحل المشاكل إلا بالتعاون بين الحاكم والمحكوم من خلال جسور الثقة والعدل .

وأسوة بكل الطغاة ، تولى الحجاج الحكم دون سابق تجربة أو علم فانصبت على رأسه لعنات الشعب ، ولم يعرف الحجاج غير لغة السوط ولسان القوة وأسلوب العنف للتحايل على الناس ، وللتعامل مع المحكومين ولم يفكر مطلقًا فى استخدام شيء من التفكير وحوار العقل وقد عاش الحجاج عصرى عبد الملك بن مروان ، وولده الوليد بن عبد الملك ونجح الاثنان فى اتخاذه مخلب قط لينعما هما بالسلطان .

من هو الحجاج :

من أبرز رجالات ثقيف الذين لعبوا دورًا بارزًا فى التاريخ الإسلامى بوجه عام ، وفى تاريخ بنى أمية بوجه خاص ، وقد ظل طوال ربع القرن يحتل مكانة الرجل الثانى بعد الخليفة فى الدولة الأموية ، وقد ولد الحجاج عام ٦٦١م وتوفى عام ٧١٤م (أى ٤١ —

٩٥هـ) ، ولاشك أن شخصية الحجاج قد تأثرت إلى حد ما بالعصر الذى عاش فيه ، ذلك العصر الذى شهد الكثير من عوامل الفرقة والتمزق والخلاف والانقسام والعصبية القبلية موجودة ، تلك العصبية التى كانت إحدى الصفات الرئيسية لكيان العرب السياسى قبل الإسلام لم تختف فى صدر الإسلام وإن كانت قد خفت حدتها مؤقتا لتعود قوية مؤثرة خلال العصر الأموى ولكن يجدر بنا قبل الكلام عن الصفات الشخصية للحجاج والعوامل التى خلقت منه طاغية أن نذكر المسرح السياسى الذى لعب دوره عليه ، وأمكننا أن نؤكد أن الحجاج كان نبت ظروف قاسية ألمت بالدولة التى عاش للدفاع عنها وهى الدولة الأموية .

ومن الناحية السياسية كانت الفتنة التى حدثت بين المسلمين فى نهاية عهد عثمان ، والتى أدت إلى اغتياله ثم اغتيال على بن أبى طالب ، ثم الفتن فى عهد معاوية وولده يزيد ، كل ذلك لم يعط الاستقرار السياسى للدولة العربية الجديدة وقد شعر عثمان بن عفان بالخطر الذى سيلحق الأمة الإسلامية قبل مصرعه فقال للزعماء الثائرين عليه – كما جاء فى تاريخ الطبرى (جـ ٤) ، والكامل فى التاريخ (جـ ٣) :

« فوالله لئن قتلتمونى لا تحابون بعدى ولا تصانون جميعًا بعدى أبدًا ولا تقاتلون بعدى عدوًّا جميعًا أبدًا » وقال أحد الصحابة حين

بلغه قتل عثمان - كما جاء فى كتاب طه حسين الفتنة الكبرى (جـ ٢) .

« لقد كنتم تحلبونها لبنًا فلن تحلبوها منذ اليوم إلا دمًا » .

ومن هنا أصبح متعذر المحافظة على وحدة المسلمين إلا بالقوة ولقد كانت الظروف التى سبقت الفتنة الكبرى فى عهد عثمان وما أعقبها ، هى المناخ الذى هيأ ظهور معظم الفرق الإسلامية من شيعة وخوارج وغيرهم ، ولكن رغم الظروف السياسية فقد كان هناك عامان فى تاريخ المسلمين خلال عصر الدولة الأموية العام الأول هو سنة ٤١ (٦٦١م) ، والذى أُطلق عليه عام الجماعة الأول حيث اجتمعت كلمة المسلمين على خلافة معاوية ، والعام الثانى هو عام ٧٣هـ (٦٩٢م) حيث أُطلق وهو العام الذى أعاد فيه عبد الملك بن مروان الوحدة عليه عام الجماعة الثانى إلى الدولة الإسلامية .

بيعة الأمر الواقع :

ولكن من الجدير بالذكر أنه إذا استثنينا أهل الشام فإن جمهور المسلمين الآخرين لم يعطوا معاوية البيعة عن رضًى واقتناع ، وإنما قبلوا ذلك كأمر واقع لا مفر منه لوضع حد للحرب والفرقة الانقسام ، وأحدا لم ينس أبدًا للأمويين أنهم كانوا أخطر أعداء النبى ، وأنهم لم

يعتنقوا الإسلام إلا فى الساعة الأخيرة مكرهين ولعل ذلك جعل معظم المسلمين يعتقدون أن موقف الأمويين السابق من الإسلام لايؤهلهم لقيادة الأمة الإسلامية ويبدو أن أسباب اتساع الهوة بين الأمويين ومعارضيهم ظلت قائمة طوال الحكم الأموى حتى قيل : « ما تلاقى اثنان إلا وتحدثا فى الأمويين وما اجتمع ثلاثة إلا وشرعوا فى العمل ضدهم » .

والآن نعود إلى شخصية الحجاج ونسبه :

ينسب إلى ثقيف ، وهناك أسباب دفعت النسابة إلى تشويه نسب ثقيف فى مقدمتها موقف ثقيف من النبى ومن الدعوة الإسلامية قبل دخولها الإسلام وتحالفها التقليدى مع بنى أمية ، وكان الحجاج بن يوسف شديد التعصب لهذا النسب يدافع عنه ويغضب إذا نسب إلى غيره وقد أمد الخلاف حول نسب ثقيف أعداء الحجاج بمادة غنية خصبة فى هجائه والتعريض به ، وكان عبد الله بن الزبير خلال فترة حصار الحجاج له يشتم ثقيفاً فى خطبة الجمعة ويصفهم بأنهم :

« قصار الخدود ، لئام الجدود ، سود الجلود بقية ثمود » وكان الحجاج فى معرض رده على هذه الادعاءات يقول « أنا بقية ثمود وهل بقى مع صالح إلا المؤمنون » . ومكانة ثقيف تعززت بشكل ملحوظ فى ظل الدولة الأموية التى اعتمدت فى العهدين السفيانى والمروانى على كثير من رجالات ثقيف فى توطيد حكمها وسلطانها .

أين ولد الحجاج ؟

ولد الحجاج بن يوسف الثقفى فى الطائف - موطن ثقيف - فى قرية بنى صخر على جبل « الهدى » وإن كان أبو المحاسن فى كتابه « النجوم الزاهرة » يذكر أن الحجاج ولد فى مصر بالفسطاط ولكن ثبت خطأ ذلك من خلال كتابات معظم المؤرخين ، وأيضًا اختلف البعض فى سنة ميلاد الحجاج ولكن يكاد يكون مستقرًّا عليه أنها سنة ٤١هـ ، فالطبرى وابن الأثير يقولان : إن ميلاده كان عام ٤٢هـ بينما المسعودى وابن عساكر يقولان : إنها سنة ٤٠ ولكن الحجاج نفسه يقول إنه ولد سنة أربعين هـ ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى عدم اهتمام المؤرخين المسلمين عامة بمولد الأشخاص قدر اهتمامهم بسنين وفاتهم التى تذكر بعد اشتهار أصحابها واسم الحجاج يعنى قاطع العظم لأنه لغويا كلمة « حججت العظم » تعنى قطعته ، ويعتقد بأن الحجاج لم يعرف صغيرًا بهذا الاسم وإنما كان يسمى « كليبا » وعرف بالحجاج فيما بعد .

وقد ذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب : أن الحجاج ولد مشوهًا لا دبر له فثقب عن دبره ، ومثل هذا القول لا يستبعد خاصة وأنه يحدث فى حالات نادرة لحديثى الولادة ، غير أن المسعودى يمضى فى روايته بعيدًا محاولاً أن يبرر بها سبب ولوع الحجاج بسفك الدماء على حد تعبيره فيقول : إن الحجاج

بعد ولادته أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، وأنه يقال إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة فقال اذبحوا جديًا أسود وأولغوه فى دمه ، فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسًا أسود وأدلفوه دمه ثم اذبحو له أسود سالخا فأولفوه دمه ، واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع » وتنهى الرواية بالقول بأنهم فعلوا به ذلك فكان لا يصبر على سفك الدماء ، ولا شك أنها أسطورة أكثر منها واقعًا تمامًا كالأسطورة التى لحقت مولد جنكيز خان بأنه ولد وفى قبضته بقعة من الدم المتجمد ، وكل طاغية فى التاريخ ساق حوله البعض من هذه الأساطير ، وهكذا ولد الحجاج وأبى رواة الأساطير إلا أن يولفوه فى الدماء حتى الثمالة وقديمًا قيل وما آفة الأخبار إلا رواتها .

ووالد الحجاج هو يوسف بن الحكم بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن عوف بن ثقيف ، ولكن المصادر لا تمدنا إلا بإشارات قليلة عن هذا الوالد ، ولكن جاء على لسان ابن خلدون أن والد الحجاج كان رجلاً تقيًّا على جانب من العلم والفضل والشرف قضى معظم حياته يعلم أبناءة القرآن وأصول الدين تقربًا إلى الله وطمعًا فى مثوبته ، وكان للحجاج أخ أكبر هو محمد وأخت هى زينب ، وأم الحجاج هى « الفارعة بنت همام بن مسعود

الثقفى وكان جد الحجاج لأمه عروة ابن مسعود الذى كان أول شهيد مسلم فى الطائف .

ابن المتمنية :

ولعل ذلك كله غريبًا كيف يكون الحجاج بمثل هذه الصورة ومع ذلك يصبح طاغية جبارًا جامد القلب .

نقول إن هناك ظروف شخصية تحول الإنسان من صورة إلى أخرى وهناك ظروف عامة تجعلها أى هذه الشخصية تسلك طريقًا ما ، فالحجاج بتحالفه مع بنى أمية وضع نفسه فى حكم العداء مع آل البيت ، وارتباط مستقبل بنى أمية بالحجاج جعله سيفًا بتارًا لأعدائهم لا تهمه إلا النتائج وليس فى قاموسه أفكار العدل والرحمة ..

كما أن المشتغل بالسياسة يبعد بنفسه عن القيم ويتأتى بسلوكه عن الأخلاق إذا كانت هذه القيم تتعارض مع الأطماع ومع الشهوة للتسلط والحكم ، ومن الجدير بالذكر أن بعض المصادر التاريخية تذكر – مثل رواية المسعودى – أن والدة الحجاج كانت متزوجة قبل والده من الحارث بن خالده طبيب العرب فى حين يذكر ابن عساكر أنها كانت زوجة المغيرة بن شعبة ، ولكنها طلقت بسبب اشتغالها بالسحر ويذكر « البلاذرى » أن والدة الحجاج تمنت وهى عند المغيرة بن شعبة شرب الخمر والالتقاء بنصر بن الحجاج – الذى كان يوصف بأنه أجمل شباب المدينة مما اضطر عمر بن الخطاب

إلى نفيه إلى البصرة بعد أن افتتنت به بعض النساء وسمع الفارعة وهى تنشد فى خدرها .

هــل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وقد استغل خصوم الحجاج بن يوسف هذه الحكاية فكانوا يدعونه بابن المتمنية ... وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم أنها تلحق بجدة الحجاج فإنها ولا شك كانت عقدة نفسية حكمت سلوكيات الحجاج قبل الكثير من البشر حاول أن يمحوها بأى ثمن ... وتكاد المصادر تجمع على أن الحجاج لم يكن جميل الشكل ، بل كان دميم الصورة وقد ورد فى المصادر أنه كان صغير الجثة حمش الساقين منقوص الجاعرتين ، خفش العينين دقيق الصوت أكتم الحلق ويقال إن رأسه كان كبيرًا مستطيلاً كأنه غرس بين كتفيه ، ولاشك أنه تأثر أيضًا بشكله الخلقى لأن ذلك جعله لقمة سائغة لأعدائه لهجائه ، وكل ذلك أوجد فيه استعدادًا للقسوة والعنف وذلك كنوع من تغطية النقص الذى كان يحسه لعدم حسن هيأته ، الأمر الذى ميز شخصيته بالميل إلى الشدة وقوة البأس والتهجم حتى قيل إن الحجاج كان لا يضحك إلا نادرًا .

أنا ابن جلا :

لما تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعد وفاة أبيه بعهد منه كانت حال البلاد الإسلامية فى غاية الفوضى والاضطراب فإن

الحجاز به عبدالله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أنقسمت إلى ثلاث فرق ... زبيرية بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته ، شيعة تدعو إلى آل البيت ، وخوارج وهم لا يريدون البيت الأموى أو البيت العلوى ، ويؤمنون أن من يستحق الخلافة هو صاحب الكفاءة ، ولكن بولاية مصعب بن الزبير من قبل أخيه عبد الله بن الزبير أمر العراق عاد العراق كله إلى عبدالله وبقى الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان ، وتشجع عبد الملك وسار بقواته إلى العراق لإخضاعها حتى نجح فى ذلك بعد أن هزم أهل العراق ، وقتل مصعب ولم يبق خارجًا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جندًا إلى مكة يقودهم الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٢هـ ، فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ، ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالإمامة إلى الحجاج ، وظل عبدالله يقاتل حتى قتل وأمر الحجاج بصلب جثته وكانت سنة ٧٣ سنة ولم يرحم الحجاج شيخوخته وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك بن مروان فى جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة ولم يلبث فى سنة ٧٥هـ أن عين عبد الملك الحجاج واليا على العراق فسار إلى الكوفة حتى دخل مسجدها فصعد المنبر وهو ملتثم بعمامة خز حمراء فاجتمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت ثم كشف اللثام عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

يأهل الكوفة إننى أرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى « أما بقية الخطبة فإنها لا تختلف فى معناها ولهجتها عما تقدم » ، ولما فرغ الحجاج من خطبته لم يفد أحد ممن كان بالمسجد ولم يظهر أحد استياءه وأمر الحجاج غلامه بأن يقرأ على الناس كتاب عبد الملك فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم .. من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » غير أن أحدًا من الحاضرين لم يرد السلام فأمر الحجاج غلامه بالكف وأخذ يوبخ الناس ويتهدد ويتوعدهم قائلاً « والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن » ثم أمر غلامه فأعاد القراءة فقال الحاضرون « على المؤمنين السلام » .

سياسة الحجاج فى الحكم :

ويتضح لنا أن سياسة الحجاج فى حكم أهل العراق كانت سياسة حزم ممزوجة بالظلم والجبروت ، ولا غرو فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظن ولعل أشهر مواقع الحجاج كانت ضد « ابن الاشعث » الذى شق عصا الطاعة على الخليفة فتعقبه الحجاج حتى قضى عليه فى معركة « دير الجماجم » ورغم حرب ابن الاشعث إلا أن الحجاج احتال عليه حتى قتله ثم أسرف الحجاج فى قتل أسرى « دير الجماجم » بشكل جعلنا نقول إن حبه لسفك

الدماء كان يجرى فى عروقه بلا رحمة إلى درجة أن الخليفة أرسل يقول له « إذا أعطاك الله الظفر على قوم فلا تقتل جانحًا أو أسيرا » . عاش الحجاج أكثر من عشرين عامًا فى الطائف قبل أن يظهر على المسرح السياسى وقيل إنه فى حداثة سنه عمل راعيًا للغنم كما عمل فى وقت لاحق فى دباغة الجلود ، وقال البعض إن الحجاج اشتغل بالتعليم مرحلة من حياته أسوة بأبيه يوسف وأخيه محمد .

ويبدأ ظهور الحجاج على المسرح السياسى وقت أن وقف هو وأبوه إلى جانب الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية حيث شاركا سويًا فى موقعة « الحرة » إلى جانب قوات مسلم بن عقبة ضد أهل المدينة وقيل إن الحجاج وأباه فرا فى بداية المعركة على جمل بطىء وقد اعترف الحجاج بهذا الفرار ، ثم يجىء الحجاج هو وأبوه مع حملة مروان بن الحكم على مصر حيث يبقيان حوالى الشهرين فى الفسطاط ثم يشارك الحجاج ووالده فى الحملة البرية التى أرسلها مروان بن الحكم أيضًا إلى الحجاز للقضاء على عبدالله بن الزبير ، وقيل إن هذه المعركة كانت درسًا قاسيًا للحجاج فقد أسر معظم رجال الحملة وفر الحجاج بن يوسف ووالده راكضين لحوالى ثلاثين ميلاً ويطلق على هذه المعركة اسم معركة « الربذة » وهى قرية من قرى المدينة على بعد ثلاثة أيام منها وفيها دفن الصحابى المعروف أبو ذر الغفارى .

وكانت أول ولاية يتولاها الحجاج هى بلدة بتاله ولكنه استهان

بها ولم يدخلها وذلك لتطلعه إلى ولاية أرقى وأوسع ولم تلبث الظروف السياسية الصعبة التى واجهت عبد الملك بن مروان فى بداية خلافته أن ساعدت على إتاحة الفرصة للحجاج للظهور على المسرح السياسى.

تولى الحجاج ولاية الحجاز بين سنتى ٧٢ ، ٧٥هـ ثم تولى العراق بعد سنة ٧٥ ثم أصبحت له الولاية على خراسان فعين المهلب بن أبى الضفره نائبًا عنه فيها وذلك سنة ٨٠هـ وفى سنة ٨٩ عين الحجاج واليا من قبله على « سجستان » .

شهادة الكفر أولا !!

وقد ثار الناس ضد الحجاج وخلعوه لقسوته وبايعوا بدلاً عنه عبد الرحمن ابن الأشعث وانتصر ابن الأشعث فى عدة مواقع ضد الحجاج ولكن الحجاج انتصر فى النهاية وكان انتقامه من عدوه مروعًا.

ولقد عرض عبد الملك بن مروان على أهل العراق عزل الحجاج والاعتراف بالخلافة للبيت الأموى ، ولكن أهل العراق رفضوا ذلك وصمموا على خلع عبد الملك فكان أن أطلق عبد الملك عليهم الحجاج واستمرت معارك دير الجماجم مائة يوم وكانت نهايتها ١٤ جمادى الثانية سنة ٨٣هـ .

وبعد الهزيمة بدأ الناس يبايعون الحجاج من جديد فلا يرضى بمبايعتهم إلاإذا شهدوا على أنفسهم بالكفر فمن شهد نجا ومن أبى قتله .

ولا شك أن فتوحات الحجاج من خلال عماله « ولاته » فيما وراء الهزيمة أدت إلى لصق الكثير من التهم به لأنه كان قاسيًا فى معاملاته مع شعوب تلك البلاد وكان حريصًا على ملء خزائن الدولة بالجزية وفى نفس الوقت لم يترك أية فرصة دون أن يمثل بأعدائه بل كان حرصه على أن يكون سيفه أسبق من لسانه هو شكل الارهاب الذى يجب أن يزرع فى القلوب .

قتل الاسرى :

ولعل أوثق التهم التى لصقت بالحجاج كان حرصه على قتله الأسرى إما للترهيب وإما لأنه كان يرى أن الإنفاق عليهم تبديد لأموال المسلمين وحتى يكونوا عبرة لغيرهم حتى لا يثوروا ضد بنى أمية .

مساوئ الحجاج وطغيانه :

حاول الحجاج أن يوقع بزعيم الشيعة فى عهده محمد بن الحنفية وأن يقبض عليه ويرسله مكبلاً بالحديد من العراق إلى الشام ولكن عبد الملك بن مروان منعه من ذلك وحاول قتل الشاعر الثقفى محمد بن عبد الله الثقفى للغزل بأخته لولا الخليفة ولكن أسوأ ما يلصق بتاريخ الحجاج بعد ضربه الكعبة والمسجد الحرام بالمنجنيق ، واستباحته كميدان قتال وكانت هذه سبة فى جبين الحجاج لأن مكة المكرمة

اعتبرت فى نظر الإسلام والمسلمين مدينة محرمة لا يحل القتال فيها فقد روى عن الرسول فى خطبته يوم الفتح .

« إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا » .

ولعل أشهر ما قيل فى الحجاج ولازال حتى الآن يردد من أقوال ما قاله الشاعر « عمران بن حطان » الذى عير الحجاج لإحجامه عن منازلة شبيب وزوجته غزاله فقال عن الحجاج : « أسد علىّ وفى الحروب نعامة » وكان الحجاج يؤخر صلاة الجمعة حيث كان يخطب الناس خطبًا طويلة تستغرق الساعات فاتهمه الناس بإماتة الصلاة وحاربوه من أجل إحياء وقتها .

ولقد تعددت زوجات الحجاج – كعادة أهل ثقيف – فكان يحتفظ بأربعة ثم يطلق من يرى إذا ظهرت فى الأفق امرأة جديدة وكان لديه الكثير من الإماء .. ومن أشهر زوجاته هند بنت النعمان بن بشير الأنصارى أحد الصحابة المشهورين الذين نزلوا بالشام وكانت جميلة فاتنة ، ذات أدب وفصاحة ، أنجب منها الحجاج ولدين هما إبان وعبد الملك ولكن قيل إن الحجاج طلقها لأنه على حد بعض الروايات دخل عليها فرآها تنظر فى المرآة وتقول :

فإن ولـدت فحلا فلله درهــا
وإن ولدت بغلا فجاء به البغل
ومـــا هند إلا مهــــرة عربيــة
ســــليلة أفــراس تحللها بغـــل

ريحانة . . لا كهرمانة !

وتعتبر هند بنت المهلب بن أبى صفرة من أبرز زوجات الحجاج ، وباختصار يمكن القول أن هذا الطاغية تزوج أكثر من عشرة نساء كانت أشهرهن أم كلثوم ابنة عبدالله بن جعفر بن أبى طالب الذى طلقها بأمر الخليفة خوفًا من تحول ولائه للبيت العلوى وكان الحجاج يرى المرأة ريحانه وليست بكهرمانة أي أنها خلقت للتمتع بجمالها ولا ينبغى لها التسلط على زوجها .

عاش الحجاج مواليا لبنى أمية دون أن يقيم وزنًا لسخط الرأى العام وكان يعلم بكره الناس له ، ولا يعبأ بهذه الكراهية ، وكانت الثقة بينه وبين أهل العراق معدومة حتى روى عنه قوله : أهل العراق هم أهل الثقافة والنفاق ومساوئ الأخلاق ثلث مارق وثلث منافق وثلث سارق .

ولقد كان الحجاج فى الواقع – كما يقول بن خلكان – « له فى القتل وسفك الدماء والعقوبات غرائب لم نسمع بمثلها » وهو

بلا شك طاغية بنى أمية وطغيانه غدا أسطورة تعبر عن حقيقة بطشه وظلمه وقسوته ، إلى أن توفاه الله حيث كان الحجاج يشكو من الإرهاق والتعب والإعياء ويعانى من ارتفاع فى الضغط وقرحة فى المعدة ويشكو من الصداع وطنين الأذنين وعسر الهضم وكأن أمراض البشر المستعصية قد وجدت من أجله ، وقيل إنه تعذب كثيرًا حتى طلعت روحه إلى السماء وأن أحدًا لم يترحم عليه وقد دفن بمدينة واسط فى شوال سنة ٩٥هـ وبذا انتهى طاغية من الطغاة أذل الرقاب وتحكم فى العباد ، وحطم الأوتاد وكان جبارًا استحق من السماء أسوأ أنواع العقاب .

لويس الرابع عشر

طاغية فرنسا

القيم المعنوية هى دلالة الحياة الفاضلة ، وإنسان بلا مبادئ يفقد روحه ، وتنطلق غرائزه من عقالها متحكمة وغاشمة وضارمة تستبد بعقله وقلبه ، وتلهب فيه أوضع الميول والرغبات ، ونحن ننسى أن خطايانا تعمر طويلاً وغالبًا ما يعجز الزمن عن قتلها . والحكام يموتون كغيرهم من الناس ، ولكن كثيرين منهم كانت ميتتهم عنيفة كرد فعل لطغيانهم وجبروتهم ، الشعوب عندما تقرر مواجهة ظالميها فإنها لا تهتم بالتضحيات فى سبيل أن تخلص نفسها من التعاسة والشقاء .

ولقد وصل الأمر بحكم لويس الفرد أن سمى عصر باسمه ، وقيل إن شمسه كسفت شموس ملوك عصره ، وكان هذا العصر مليئًا بالانحطاط الأخلاقى وتدهور الفضائل الإنسانية ، وهوت التقاليد فيه إلى الحضيض هذا الطاغية هو لويس الرابع عشر .

ولد الطاغية فى ٥ سبتمبر ١٦٢٨م فى قصر سان جارمان ، وأمه هى « آن دوتريش » ووالده هو لويس الـ ١٣ الذى تزوج

فى سنة ١٦١٥ ، وظلت زوجته لا تنجب لمدة ٢٣ سنة حتى ولدت هذا الابن بعد أن فقدت الأمل فى الإنجاب وبعد أن أصيب لويس الـ ١٣ بمرض عضال وساءت صحته .

كانت جدته عشيقة لأكثر من رجل ، ماتت الفضيلة فى قلبها ، وفقدت القيم وجودها وعاشت لملذاتها ، وكان أشهر عشاقها أفاقًا إيطاليا اسمه « كونشينى » أما عشيقها الثانى الشهير فهو الدوق « بوكنجهام » الإنجليزى والذى كان يطمع فى عرش فرنسا .

وعاش أبوه محرومًا من السلطة :

ولد لويس الـ ١٤ فى جو كله دسائس ومؤامرات ويكفى أن نقول : إن جده هنرى الرابع قد اغتيل فى عام ١٦١٠م ، ولا شك أن كل هذه الظروف أدت إلى تكوين شخصيته وتحديد هويته ، ولقد تولى لويس الرابع عشر حكم فرنسا فى عام ١٦٤٣ أى وهو دون الخامسة ومن ثم أصبحت أمه « آن دوتريش » — بنت فيليب الثانى ملك أسبانيا هى الوصية عليه ، والمتحكمة فى السلطة ، وهكذا تتشابه ظاهرة ولاية أبيه الحكم وكان الساعد الأيمن للملكة الأم هو الكاردينالى « مزران » الذى خلفه « ريشيليو » كوزير أول للدولة الفرنسية وقد واجهت لويس صعوبات جمة عند بداية تسلمه السلطة ، ولعل أهم هذه الصعوبات نشوب حرب أهلية استمرت لمدة ٤ سنوات عرفت باسم حرب « الفورند » ، ظلت

فى الفترة من ١٦٤٨ ، وانتهت سنة ١٦٥٢ وقد قادها الأشراف بهدف استعادة امتيازاتهم الأولى ، ولكن مزران نجح فى تعبئة الجيوش والانتصار عليها ، وبدأ الأشراف يذعنون لأمر الملك ، ولكن بموت مزران سنة ١٦٦١ كان لويس قد بلغ الثالثة والعشرين ، ورأى أنه قد آن الأوان ليجمع السلطة فى يده ولذا لم يعين وزيرًا أول واحتفظ لنفسه برئاسة الوزارة ورئاسة الدولة وأصبح حتى نهاية أيامه هو الحاكم المطلق لفرنسا فكيف حدث هذا ، ولماذا تحول إلى طاغية يذكره التاريخ بالقسوة والجحود ؟

٧٢ عاما فى الحكم :

فى البداية لنا مجموعة من الملاحظات وهى أن فترة حكم لويس الرابع عشر الرسمية امتدت ٧٢ عامًا أى ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن فهو قد حكم من عام ١٦٤٣ حتى عام ١٧١٥ ، وقد حكم فيها أكثر من نصف قرن بمفرده بعد أن توفى مزران . وكان لويس الرابع عشر خلال تلك الفترة الطويلة من عمر الشعوب ، صاحب النفوذ المطلق المتفوق فى البلاد ، وأطلق شعاره الخالد « أنا الدولة والدولة أنا » .

وإذا كان للطاغية صفات وملكات ، يتمتع بها تتضح فيما يمتلك من زهو وغرور واستبداد الرأى والأطماع الواسعة ، التى يستخدم كافة الأساليب الملتوية والدسائس الغامضة للوصول إليها ،

فإن هذه الصفات كانت أظهر ما توجد فى لويس التاسع عشر .. فقد كان داهية فى سياسته ، شب جافى القلب مغلق النفس ، كتومًا ، كثير الحذر ، قليل الكلام ، يبطن غير ما يظهر ، ويعمل جهده على أن يخفى أفكاره وميوله وهواجسه عن كل ما حوله ، ولا شك أن تحليل شخصية لويس الـ ١٤ يسبب ارباكًا لدى علماء النفس فما بالك بالمؤرخين ، فلقد كان لويس الرابع عشر بحق لغزا عسير الحل ومجموعة من المتناقضات الغامضة التى تجمعت فى النفس الواحدة ، ولا يمكن لأى استقراء لحركة التاريخ أن ينكر أن الشعب الفرنسى فى ظل حكم لويس الـ ١٤ بددت موارده واستنزفت قواه وسلبت ثرواته وكل ذلك لتحقيق أطماع رجل واحد ولتجميد حاكم أحب السلطة أكثر من حبه للسلام ، ووصل بفرنسا إلى مفترق الطرق وأدخل الرعب على قلوب رعاياه ، ووضع أهل باريس تحت رقابة مستمرة وقبض على جميع الذين اشتبه فى أخلاقهم ونصب المشانق فى أنحاء فرنسا وأحاط نفسه بجيش من الجواسيس وكل ذلك ليضمن كرسى الحكم واستمراره فى السلطة .

ولقد بدأ عهد لويس الـ ١٤ بالكراهية ، لأن الشعب الفرنسى كان يكره أمه الوصية على العرش لأنها أجنبية ، كما أن هذه الأم تخلصت من المجلس الذى كان من المفروض أن يساعدها ويرشدها إلى أفضل نظم الحكم ، بالإضافة إلى أنها اعتمدت على شخصية أجنبية وهى الكاردينال مزران .

الأسباب التى خلقت من لويس الـ ١٤ طاغية :

أولاً : السلوك العام للملوك وحكام تلك الفترة اعتقادًا منهم أن الملك هو ظل الله على الأرض وأن سلطاته مطلقة وأن على الشعب الطاعة ، ولم يكن البرلمانات أى وجود حقيقى فى تسيير دفة الحكم .

ثانيا : تحكم النساء كوصيات فى أطفالهن الملوك واستئثارهن بالسلطة ولم يكن من السهل انتزاعها إلا بالغدر والضرب بقوة ، كان ذلك واضحًا فى أم لويس الـ ١٣ التى سيطرت عليه وأم لويس الـ ١٤ التى سيطرت عليه وكلتاهما وصيتان على العرش لأن ابنهما كان صغيرًا .

ثالثًا : الأحداث الداخلية فى فرنسا والتى أدت إلى حربين أهليتين وهما حربا الفروند الأولى والفروند الثانية ، (وكلمة فروند تعنى رماة المقاليع) وقد عرضت كلتا الحربين الملكيتين فى فرنسا للسخرية والخطر والانهيار والفوضى ، وأدى ذلك إلى القبض بيد من حديد على السلطة وإلى حكم العنف والقوة للقضاء على الثورة ، بل وتعرض لويس نفسه وهو طفل للاغتيال .

رابعًا : الحروب الخارجية التى خاضتها فرنسا فى عهد لويس ،

والتى جعلت الحكم شبه عسكرى يمنع من خلاله أى حوار أو جدال أو إبداء الآراء لصالح المجتمع ...

خامسًا : شخصية لويس الـ ١٤ نفسها والتى دفعته إلى سلوك معين ، وذلك المناخ الذى تربى فيه وتلك الأوضاع التى شاهدها بنفسه ، كل ذلك دفعه إلى حلبة الطغيان ناسيًا العدالة لبنى الإنسان فى وطنه .

ولقد ساعد لويس على طغيانه مجموعة من المستشارين ، الذين أحاطوا به ونذكر منهم « ليون » للسياسة الخارجية ، فوكيه للشئون الاقتصادية ، لوتلييه للشئون الحربية ، ولم يلبث أن حل « كولبير » الاقتصادى الفرنسى الشهير محل « فوكيه » ، ومن خلال هؤلاء المستشارين انفرد لويس الرابع عشر بالحكم والتحكم فى كيفية إنفاق أموال الدولة .

وإذا كنا لا ننكر البداية الناجحة للويس عند إمساكه بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعفيه مما أصاب فرنسا بعد ذلك من انهيار اقتصادى ، وتأثر ميزانية فرنسا بسبب تلك الحروب التى خاضها لويس الـ ١٤ ، ولم تكن فرنسا لتجنى من ورائها شيئًا صحيح أن لويس اهتم بتنظيم الشئون الاقتصادية ، كما أنه اعتنى بالجيش والبحرية ، حتى وصل عدد الجيش إلى ما يقرب من ٣٥٠,٠٠٠ جندى خلال خوض حروبها مع أعدائها ، أيضًا اهتم لويس الـ ١٤ بالعلوم والفنون

وقد ظهر فى عهده كتاب فرنسيون عظام أمثال « موليير وراسين وكورينى ولافونتين » ، واهتم لويس بالأكاديمية الفرنسية التى كانت قد أنشئت عام ١٦٣٥ وفى عهده تأسست أكاديمية العلوم وأكاديمية التصوير والعمارة .

وكلها فى الحقيقة كانت بدايات رائعة ، وكعادة كل الطغاة ، البداية مائة فى المائة ولكن الخاتمة مأساة فاجعة ، بعد أن تصبح الأمور ملك يمينه وبعد أن يضمن سيطرته ، ويكون قد اشترى أصوات معارضيه بالأمل أو بالسراب ، بالحلم أو بالخيال وبالقوة والعنف إن لزم الأمر .

حروب لويس :

خاض لويس الـ ١٤ عدة حروب كان تأثيرها سيئًا على فرنسا ، ولم تكن إلا لتحقيق أطماعه التوسعية فى أوربا ، وأول هذه الحروب هى حرب الأراضى المنخفضة بين عامى ١٦٦٧م – ١٦٦٨ ، وهى الحرب الموجهة ضد بلجيكا ، ثم الحرب الهولندية بين عامى ١٦٧٢ ، ١٦٧٨ ، والتى ترتبت على الحرب الأولى من منطلق أن هولندا وقفت ضد أطماع فرنسا فى بلجيكا ، ثم الحرب الثالثة وهى حرب عصبة أو جزبرج وهى الناتجة عن سخط العالم البروتستنتى على لويس ، نظرًا لقيامه بإلغاء امتيازات البروتستنت الفرنسيين ، وأخيرًا حرب الوراثة الأسبانية ، والتى كانت فرنسا تقصد من

ورائها ١٧٠٠–١٧١٣ إلى فرض حليف لها على العرش الأسبانى ، وهذه الحروب الأربعة لم تكسب فرنسا من ورائها شيئًا ، بل لقد خسرت الكثير من الأموال والمعدات وساءت الأحوال فيها بدرجة لا مثيل لها .

لقد كان لويس الرابع عشر يعتقد أن :

الملك يمثل الإله وهو نائبه على الأرض ، ويتمتع بسلطة مقدسة مستمدة من الإله نفسه ، وأن مباشرة سلطته لا يمكن تجزئتها أو التنازل عنها للغير ، لأنها من حقوق الملك وحده الذى يسأل عن استخدامها أمام الله فقط ، فالوزراء أداة يختارهم الملك لتنفيذ أوامره ، ولا يمكن للشعب أن يكون له أى حق فى الاشتراك فى الحكومة ، والملك وحده هو الدولة لأنها كنظام سياسى لا وجود لها إلا فى شخص الملك وحده ومن أجل ذلك جمع لويس الـ ١٤ أسباب السلطة فى يده دون مشاركة أحد ممن حوله أو من مساعديه .

وقبل أن أعرض لنماذج من طغيانه يجب أن أقول : إن حروب فرنسا المستمرة فى عهد لويس الـ ١٤ أدت إلى إذلالها فى بعض المواقف وجعلتها تفقد زهرات شبابها وصحب ذلك كله انتشار البؤس والذعر فى كل مكان لدرجة أن الدعوات لوقف هذه الحروب كانت مطلبًا للجميع ، ولقد صدق حقًّا من قال إن المصائب لا تأتى فرادى ، فكأنما الدهر قد تعهد على أن يلقى بكل ما فى جعبته

من مصائب ونكبات على لويس الـ ١٤ ، الذى حكم منفردًا من خلال مجلس سرى وجمد طبقات الأمة وجعل شعاره « أنا الدولة والدولة أنا » أسلوبًا للمركزية المطلقة ، ولم يفرق بين خزانة الدولة وجيبه الخاص ، وكأن إرادة السماء تريد أن تذيقه ألوان العذاب كجزء من العقاب ، فقد أصيب ولى عهده يوم ١٨ أبريل سنة ١٧١١م بوعكة بسيطة ولكنها أودت بحياته بعد ٢٧ يومًا ، وحزن الملك على ابنه حزنًا شديدًا حيث تغيرت شخصيته تماما فأصبح زاهدًا فى الحياة ..

حركة الأسقف جانسن :

ولقد اتبع لويس الـ ١٤ أساليب العنف للقضاء على حركة الأسقف « جانسن » « وأتباعه » وهم الذين مثلوا فئة الزهد والتقشف فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ولكن البابا وقف ضدهم وحرض لويس عليهم ، وكانت الوحشية المنقطعة النظير التى اتصفت بها هذه الفئة صفحة سوداء فى تاريخ التعصب الدينى فى فرنسا جلبت اللعنة على لويس الـ ١٤ .

نماذج الطغيان :

لعل تعدد الأخطار التى ارتكبها لويس فى حق شعبه جعلت من هذه الأخطاء آثامًا وخطايا ، وكان أشد هذه الخطايا عنفًا ،

عداء لويس لطائفة البروتستانت الفرنسية التى عرفت باسم « الهيجونوت » ، وتحت ميل هؤلاء إلى أعداء فرنسا انساق لويس لرأى مستشاريه ، وألغى امتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها فى مرسوم ملكى يطلق عليه اسم «مرسوم نانت» سنة ١٥٩٨ فى عهد جده ، ولكن لويس وقع قرارًا فى أكتوبر (الأول منه) سنة ١٦٨٥ بإلغاء هذا المرسوم مما كان يعنى إزالة مواطن الأمان وهدم معابد البروتستانت وحرمانهم من حرية العبادة ، ومن حرية مزاولة شعائرهم الدينية ، وترتب على هذا الألغاء أيضًا طرد رجال الدين البروتستانت وإرغامهم على تربية أولادهم على مبادئ الديانة الكاثوليكية ، واتباع طقوسها والخضوع لنظمها فيما يتعلق بالأحوال الشخصية وأثبتت الأحداث أن لويس الـ ١٤ ارتكب بهذا الألغاء خطأ شنيعًا ، لأنه أدى إلى اضطهاد دينى عنيف ، وهاجر الهيجونت « أى البروتستانت الفرنسيون » إلى الدول البروتستنتينية فخسرت فرنسا بذلك خسارة كبرى وخاصة أن معظم هؤلاء كانوا من الحرفيين ، والعمال المهرة وكذلك من كبار رجال المال والأعمال والصناعة فصفوا أملاكهم ، ورحلوا إلى الخارج ففشلت الحركة الاقتصادية فى فرنسا وحدث ارتباك فى خطوط الإنتاج بها ، لأن الاضطهاد الدينى ليس من ورائه إلا انقسام الأمة وحدوث الفوضى الاجتماعية ، والفقراء الذى لم يستطيعوا الهجرة كونوا عصابات أقلقت الأمن ، كذلك بدأت تقوى الدول التى هجر إليها الهيجونوت لدرجة أنه قيل إن النهضة الصناعية فى ألمانيا بدأت تنمو وتنشط

مع هجرة الهيجونوت إليها ، وبمقارنة الأوضاع الاقتصادية فى فرنسا قبل إلغاء المرسوم وبعده نجد الفرق شاسعًا ، وبدأت فرنسا ترى الأيام القاتمة والليالى الحالكة واختنقت البسمة أمام الظلم الاجتماعى ، وانتهى عهد الحفلات والولائم التى اشتهرت بها فرنسا إلى درجة أن آخر أيام لويس الـ ١٤ كانت شؤمًا على فرنسا .

وساهمت الطبيعة بنصيب كبير فى المحن والنكبات فاشتد البرد وأتلفت المحاصيل وفاضت الأنهار ، ولأول مرة تقوم فرنسا باستيراد القمح من بعض الدول بأسعار فاحشة لمنع حدوث مجاعة ، وأصبحت الطرق غير صالحة والكبارى والجسور مهدمة وشلت الحركة التجارية ، وعجز كل فرد عن الوفاء بديونه وتسديد الضرائب المفروضة عليه ، وأعلن كبار الأغنياء إفلاسهم وقامت عدة ثورات بسبب الجوع ومما زاد الطين بلة أن الملك لويس ، أرهق الدولة بنفقاته فقد كان فى رحلاته يصحب معه كثيرًا من السيدات ويأخذ معه كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات واستلزم ذلك عددًا كبيرًا من العربات والحرس والخدم وتطلب نفقات باهظة .

ومما يؤثر عن لويس الـ ١٤ - أسوة بكل الطغاة - حبه الشديد للمدح والإطراء والملق فتفانى كل المتصلين به - ويا ويل الشعوب من مواكب النفاق وذوى الضمائر المعدمة - فى إلقاء عبارات الثناء والإعجاب على مسامعه لكى يحظوا بعطفه ورضاه وقيل :

إن لويس كان يعتبر هذا المدح من مستلزمات حياته كالهواء والماء والطعام ، لا يستطيع أن يعيش بدونه .

بين النفاق والتملق :

وكعادة الطغاة ، نجد أن لكل طاغية هواية معينة ، فمنهم من عشق الموسيقى ، ومنهم من فتن بفن الرسم ، وكان لويس ضمن من قرضوا الشعر فى وقت ما ، حيث أخذ ينظم بنفسه بعض الأبيات فألف قصيدة غزل وضح أنه لامعنى لها ومحشوة بالأخطاء وبينما كان يقرؤها وصل الماريشال « دى جرامون » وكان مشهورًا ببراعته فى التملق للملك حتى قيل عنه إنه أعظم متملق فى فرنسا ، فقدم له الملك القصيدة التى كتبها وقال اقرأ قصيدة الغزل هذه ، وقل لى بعد ذلك عما إذا كنت قد قرأت فى حياتك قصائد بمثل هذه السخافة والوقاحة فأنت تعلم أننى أنظم أشعارًا ولهذا يبعث لى الكثير بقصائد وأشعار من كل نوع .

وبعد أن قرأها الماريشال التفت إلى الملك وقال :

« إن كلام جلالتك مقدس بدون أدنى شك وحكم جلالتك على الأمور إنما هو حكم مقدس حقًّا ، فالواقع أن هذه أسخف وأوقح قصيدة قرأتها فى حياتى » ... فضحك الملك كثيرًا وقال : « ألا ترى أيضًا أن مؤلفها كثير الإعجاب بنفسه وأحمق » فأجاب الماريشال « إنه يا مولاى لا يستحق غير هذا الوصف الدقيق » .

قال الملك : إننى مسرور حقا لأنك تكلمت بكل صراحة ، فأنا الذى نظمتها ... ذهل الماريشال وقال : يا للخيانة ، ألتمس من جلالتكم إعادتها إلىّ لأنى قرأتها بسرعة وبدون ترو .

فرد الملك قائلاً : كلا يا مارشال لن أعيدها إليك فإن الكلمات الأولى هى التعبير الحقيقى والطبيعى لما يجول فى الخاطر ، ولعل هذا النموذج للنفاق والرياء والتملق من جانب الحاشية والفئة المنتقاة التى تدعى بالصفوة والتى تعاشر الحاكم ليلاً ونهارًا الدليل على أنها تخلق فيه نعرة الغرور وصورة التقديس والتأليه .

مدام سكارون :

وكعادة كل الطغاة ، كان لابد أن يخضع لويس الـ ١٤ لسيطرة إحدى النساء ... هذه المرة هى مدام « سكارون » وهى فاتنة جميلة من أصل نبيل ذات نهد بارز ، وجسد فائر ، ووجه ملائكى ، وتحمل عطفًا لا حدود له ، عندما توفى زوجها الشاعر دخلت هذه المرأة فى خدمة الأسرة المالكة ، وظلت تتقرب للملك لويس الـ ١٤ وبالذات بعد وفاة زوجته فى ٣٠ يونيو سنة ١٦٨٣ ، وكان جرح حبه الأول قد طاب وشفى ، وقد منح لويس مدام « سكارون » لقب مركيزة « دى مانتينون » ، ولم يلبث أن تزوجها سنة ١٦٨٤ ، ثم وقع تحت تأثيرها ولذا كان يمضى أوقات العمل فى حجرتها حيث كان يستقبل الوزراء وكبار الموظفين بينما هى

تجلس بجانبه على مقعد وثير ، صحيح أنها كانت لا تتدخل فى المناقشات ، ولكن هذا لم يكن يمنع أن يستشيرها الملك فى كل شيء يعرض عليه بأن يلتفت إليها قائلاً :

« ما هو رأيك الصائب » ، وزاد تدخلها رويدًا رويدًا فى شئون الدولة وفى توجيه سياسة الملك ، حتى أصبح لها تأثير فى كل عمل من الأعمال بشكل واضح ، وخضع لها الملك خضوعًا تامًا فلم يعد ينفذ أمرًا إلا بعد موافقتها .

ولقد ظل لويس الـ ١٤ حتى لحظاته الأخيرة يعمل بمشورة « مدام دى مانتينون » التى بدأت معه كمحظية وانتهت كزوجة ، ثم أصبحت مستشارة ، ثم جاءت لحظة السيطرة والتسلط وذلك ليس بغريب على طاغية ، لأن هتلر كانت لديه إيفا براون ، وموسولينى كانت لديه كلارا ، وستالين كانت لديه زوجته الثالثة ، كما أن أتاتورك كان لديه أكثر من واحدة ، وغير هؤلاء مما تمتلىء بهم قصص الطغاة ، والتى هى فى الواقع ليست من نبت الخيال ، وإنما هى روايات تاريخية صحيحة بأسانيد مدعمة لدى أكثر من مصدر ... ولا شك أن التسلط من جانب المرأة على رجل الحكم كفيل بضياع صوابه وبفساد آرائه .

فضائح الحكم :

لقد كانت معشوقات الملك يسسن الدولة ، ويتحكمن فى رقاب مسئوليها ، ولم تكن وظيفة الوزراء إلا مطاردة الأزواج الشرفاء

ليحظى سيدهم بزوجاتهم ، وسلطة أجهزة الدولة السرية سلاحها على الشعب بدلاً من العدو ، وامتلأت السجون والمعتقلات بالشرفاء ، وأصحاب الرأى وذوى العقول الواعية ، وكان لويس يطأ القانون حرصًا على سمعة معشوقاته ، وقلد النبلاء سيدهم وفاقوه فى الفجر والعشق ، يمكن أن نقول بلا تجن أنه عهد امتهنت فيه المعانى الإنسانية السامية وفقدت فيه القيم محتواها الأخلاقى ، وأصبحت كلمات الشرف والحفاظ على العرض مثيرة للازدراء والسخرية ، إنها بلا شك فضائح العهد الأعظم لعصر لويس الـ ١٤ ولا يمكننا فى هذه الصفحات القليلة أن تعرض الكثير منها ، بل ستقرأ سويًا بعض السطور ، وأعتقد أنها كافية لنعى ونفهم ما جرى ..

ولعل أخطر فضائح عصر لويس هى فضيحة مدموازيل « فرانسوا زدى مورتمار » ، وهى فتاة ذات جمال من النوع الأخاذ القهار ، الذى لا حول للعقل حياله ولا قوة ، والذى لا ترضى العين أن تفارقه فى الوقت الذى لا تقوى أن تواجهه ، جمال الشمس تحس به النفوس ، وتهفو إليه القلوب ولكن لا تتسامى إليه الأنظار ، وهذه الفتاة كانت تتصارع مع مدموازيل « دى لافاليير » التى كانت أقل منها جمالاً وفتنة ومع ذلك فإنها استتأثرت بقلب لويس الـ ١٤ ، ولم يطل الانتظار حيث لم يلبث الملك أن وقع فى شرك جمالها فاتخذها فورا خليلة له ، وهام بها هيامًا جعله يتخطى فى

سبيل إرضائها كل الحدود ، ويتجاوز سائر الاعتبارات ، حتى لقد بنى لها قصرًا بضواحى باريس كاد يحكى في العظمة قصر فرساى ، بل فوق ذلك أعد لها فى قصر فرساى نفسه عشرين حجرة لها ولحاشيتها على مرأى ومسمع من الملكة ، ومنح أخاها لقب مارشال فرنسا ، وعين والدها حاكما عامًا لمدينة باريس ، ورزقت من الملك سبعة أولاد - رغم أنها كانت متزوجة من رجل آخر.

ولكن الزمن لا يصفو ، والحياة لابد وأن يشوبها الألم ، والسماء لا تسكت عن جريمة الزنا المفضوح حتى وإن طال المدى ، فلقد اشتد غضب الزوج المنكوب وقصد إحدى الحفلات التى تسهر بها زوجته ، وصفعها أمام الملك لويس الـ ١٤ مذكرًا إياه بالعرف والأخلاق ، تاليا عليه آيات من الإنجيل تتوعد الزانى والزانية بالعقاب العاجل فى الدنيا والقصاص الآجل فى الآخرة ، وكان جميع الحاضرين يسخرون من الزوج المثلوم ، ولكن الملك أحس بالخوف داخله وخشى أن يطالب الزوج بأبنائه - أى أبناء الملك - من زوجته ، وله الحق القانونى فى ذلك ولما يئس الزوج من إمكانية أن يسترد زوجته لبس السواد وتوجه إلى الملك فى شكل حزين جعل الكثيرين يتعاطفون معه ولكن الشاعر موليير ألف رواية تسخر من الزوج مؤكدًا فى جملة أخيرة فى روايته هذه الكلمات :

« يا ليت شعرى هل فى مشاركة الأرباب .. عار » وتشاء الظروف أن رجال الزوج المسكين يتشابكون مع عمدة قرية فرنسية ، ويصدر الوزير الأعظم بناء على توجيهات الملك إلى رجال الشرطة وحاكم المقاطعة ضرورة إدانة الزوج مع الحفاظ على مظاهر احترام العدل والقانون ، وأحس الزوج بالمؤامرة ففر إلى أسبانيا ملتمسًا العدل من الله بعد أن يئس من عدل البشر ، وأوعز الملك إلى خليلته أن تطالب بالطلاق وتم ذلك بعد أن لوح جلالته لكبير القضاة بكرسى وزارة العدل ، ووصلت معشوقاته إلى أكثر من عشرة بينما المتعة العابرة لنساء متزوجات وصلت إلى أكثر من مائتى امرأة وبدأت شمس فرانسواز تأفل ، عندما عشق الملك فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها شقراء كالسنبلة تدعى أنجليك إلا أن الغيرة جعلت فرانسواز تقتلها بالسم ، وقال البعض إنها قتلتها عن طريق السحر حيث ثبت أنها كانت تزور مجمع السحرة ، ولكن القدر الذى كان لها بالمرصاد فقد عاشت ٢٧ عامًا فى دير معزولة حتى ماتت .

ظل لويس الـ ١٤ يحكم حتى بلغ سن الـ ٧٧ وهى أطول مدة حكمها ملك فى تاريخ فرنسا ، وقد توفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥م ، ولقد أمضى لويس نصف فترة حكمه فى حروب ، وكان ميالاً للبذخ وحياة العظمة ، ممتلئًا بالغرور ويرفض الاستماع إلى أى نصح أو إرشاد ، يظن نفسه العبقرى الوحيد على وجه الأرض .

ولويس الـ ١٤ ينتمى إلى أسرة البوربون التى حكمت فرنسا بداية من عام ١٥٨٩ حيث أسسها هنرى الرابع ، ويشاء القدر أن تنتهى مدة حكمها بعد مائتى سنة أى فى سنة ١٧٨٩ حيث تنشب ثورة فرنسا العظمى ، وإذا كان قد أطلق على لويس الـ١٤ يوم مولده « لويس هبة الله»، فإن الشعب الفرنسى عند مماته ودعه دون أن يذرف دمعة عليه ، وكأنه ارتاح من كابوس ظل جاثمًا على صدره لأكثر من سبعين عامًا .

وإذا كان لويس الـ ١٤ قد تميز بعينين كستنائيتين ، وأنف دقيق ، وثغر بسام ، وشكل ناعم ، فإنه فى ذلك لم يختلف عن الطغاة ، ولعل الأعجب من ذلك أيضًا أن عائلة الطغاة دائما قليلة العدد باستثناء نابليون بونابرت ، فإن معظم الطغاة لا نجد إلا شقيقًا واحدًا لهم ، أو لا يوجد على الإطلاق وهكذا لا نستغرب أنه كان للويس الـ ١٤ شقيق ولد بعد سنتين من ولادة لويس وقد أطلق على أخ لويس « فيليب دوق أنجو » . وقد أحب مرة واحدة فى حياته فتاة تدعى « مارى ماتشينى » إيطالية الأصل وهى بنت أخت الوزير الأكبر « مازران » وكتب لها عدة رسائل ولكن الملكة الأم حرمته من حبه الأول والأخير وزوجته زواج مصلحة .

عاش حياته مسرفًا مبذرًا الكثير من الأموال على الحفلات وهو الذى وضع تصميم قصر فرساى ليكون مقرًا للحكم بداية من ١٦٧٠م .

ولقد ظل لويس طول حياته مصابًا بمرض خطير ، يعرف فى عالم الطب باسم « الدودة الوحيدة » ولم يستطع أطباؤه شفاءه منها مع أنه عاش إلى سن السابعة والسبعين فقد ثبت فيما بعد أنهم أساءوا علاجه ، وكانوا أربعة أطباء وصفوا بالجهل .

وقبل أن يسير إلى النهاية نظر بحسرة لمن حوله وقال : « لقد كنت أعتقد أنه من العسير علىّ أن أموت » تمامًا مثل عبارات ستالين وموسولينى وهتلر وأتاتورك .

وفى الثامنة من صباح يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٧١٥ لفظ لويس الـ ١٤ أنفاسه الأخيرة قبل أن يبلغ سن السابعة والسبعين بثلاثة أيام ، ودقت أجراس السماء معلنة نهاية طاغية ورث الحكم المطلق عن آبائه وأجداده ، ولكنه فاقهم طغيانًا وجبروتًا ، آمن من البداية أنه مصدر كل السلطات ، ونسى أن الشعوب لا تفرح بالأمجاد المزيفة وبالبريق اللامع الذى هو فى الواقع لا يمنح التقدم ولا يحمى الحرية ولا يبنى السلام .

روبسبير

طاغية الثورة الفرنسية

حكم الطغاة يمثل العبودية الذليلة للإنسان فى أقبح صورها وأسوأ أوضاعها .. هى رحلة عذاب ودموع فى حياة الشعوب تتمثل فيها الغطرسة والاستبداد لسلب أعز ما منحته العناية الإلهية للبشر ألا وهى قيمة العدل والحرية .

ولكن تعلمنا دروس التاريخ أن المعاناة فوق جسر العذاب والآلام هى المخاض لحياة أفضل ، تلوح فى الأفق بعد أن تستوعب الجماهير ما قاسته خلال حكم الطاغية .

وشخصية روبسبير فاقت مثيلاتها من الطغاة ليس فقط فى ضحاياها ولكن فى الذرائع التى تسلحت بها لممارسة الطغيان من أجل حماية الحرية ، وخرجت المقولة التاريخية الشهيرة ، أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكبُ باسمك .

إنه ذلك الطاغية الذى حول الثورة الفرنسية إلى حمامات من الدم ، ولم يتورع فى سبيل السلطة عن التخلص من أقرب أصدقائه ، وضرب كل من اعترض طريقه نحو كرسى الحكم ، ونسى أن قوى القهر قد

ترغم الجماهير على التراجع ، وتمزق صفوفها مؤقتًا ولكن الخوف سرعان ما يختفى ودماء الشهداء تصبح حبل المشنقة الذى يخنق الطاغية ، وبنفس أساليبه لأن الشعوب لاتحنق على حاكميها لمجرد أسباب عاطفية ولأن البشرية خلال رحلتها التاريخية فى موكب الزمن تؤمن وستظل تؤمن أن أى محاولة لتعطيل سير الديمقراطية ، تعد عنادًا لتيار التاريخ وسباحة فى شلالات عارمة وضد تطورها التقدمى ، الذى رسمته لها العناية الإلهية .

والذى لا شك فيه أن روبسبير ، كان مريضًا بحب السلطة وحب الدماء فى آن واحد ، ولقد أطلقوا عليه سفاح الثورة الفرنسية ، وعندما قالوا له إنه أعدم بالجيلوتين – أى المقصلة – ستة آلاف مواطن فرنسى خلال ستة أسابيع فقط كانت الصدمة لا معنى لها إلا أنه كان بطيئًا فى تنفيذ الأحكام ، وعاش روبسبير فريسة لمرضه « الإمساك » ومريضا بالقرحة فى المعدة لدرجة أنه كان يتوجع طوال الليل ويتمنى لو أمسك سكنًا وبقر أمعاءه ليستريح من الألم .

من هو روبسبير :

هو ماكمليان روبسبير ولد سنة ١٧٥٨ ، وانتهت حياته بالإعدام بواسطة المقصلة فى عام ١٧٩٤ ، أى أنه عاش فقط ٣٦ عامًا وهو بهذا أصغر طغاة التاريخ وأقلهم استمرارًا فى الحكم حيث لم ينفرد بالسلطة سوى ثلاث سنوات ، عاش حاكمًا فيها كملك

غير متوج على فرنسا لمدة عام واحد فقط ، بعد أن قتل دانتون عقب إعدام الملك لويس الـ ١٦ فى سنة ١٧٩٢ .

ولقد ولد فى « أراس » فى فرنسا ، وامتهن المحاماة بعد أن درس القانون وكم هى مأساة للبشر أن يصبح رجل القانون هو اللص وأن يكون المدافع عن العدالة هو قاتلها وسارقها .

وقد انتخب فى الجمعية الوطنية سنة ١٧٨٩ ، وأصبح عضوًا مؤسسًا لنادى اليعاقبة ، وهو حزبَ تكون من عناصر ثورية متطرفة فى الثورة الفرنسية التى نشبت فى ذلك العام ، وحطمت ملكية فرنسا التى كانت تحت حكم أسرة البوربون والتى منها لويس الـ ١٦ ، ذلك الملك الضعيف الذى ابتلته السماء بزوجة نمساوية هى مارى أنطوانيت التى كانت سببًا فى ما أحاطه من مصائب ، ورغم أن روبسبير استمد الكثير من أفكاره الثورية وأقواله عن الحرية مما كتبه جان جاك روسو أحد فلاسفة الثورة الفرنسية — إلى جانب فولتير ومونتسكيو — إلا أنه بالفعل اعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية لدفع عجلة الثورة الفرنسية إلى الأمام ، ونادى بنفسه المشرع الأوحد والإله الأعظم ، وقد سيطر روبسبير من خلال استغلاله جماهير باريس على لجنة الأمن العام ، وتصدى لخصومه وبدأ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر وبالذات عدوه اللدود « دانتون » أحد العناصر الأخلاقية والإنسانية فى تاريخ الثورة الفرنسية .

وقد استمرت فترة حكمه في فرنسا فى الفترة من أكتوبر ١٧٩٣ حتى يوليو ١٧٩٤ وكان مع « كرتون » ، وسان جوست ، يشكلون ثالوث الإرهاب المفزع خلال تلك الفترة وأسس روبسبير ديكتاتورية رهيبة فاقت كل الديكتاتوريات التى شهدتها فرنسا خلال تاريخها الطويل .

وقد سيق روبسبير وأخوه وكذلك سان جوست وكرتون ، يوم ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ إلى المقصلة فى مشهد رهيب حيث خرجت باريس عن بكرة أبيها ترى مصرع السفاح ، وتتنفس الصعداء بعد القضاء عليه ، ولم تلبث عواصم أقاليم فرنسا أن شنقت كل أعوان روبسبير فى نفس اليوم والذين بلغ عددهم ثمانية عشر وهكذا سقطت « دولة الفضيلة » التى حاول روبسبير إقامتها على صرح من دماء المواطنين الأبرياء .

ورغم أن الهدف الرئيسى لخصوم روبسبير كان التخلص منه شخصيًّا إلا أن الجماهير لم تترك خلفاءه يمارسون نفس سياسته .

الجنون . . والعظمة :

والآن يجب أن نذكر كيف وصل روبسبير إلى هذه الدرجة من الجنون والعظمة وكيف أصبح هو الحاكم الأوحد ولماذا سكت زملاؤه فى الثورة عن أفعاله طيلة عشرة شهور ؟ والواقع أن الإجابة

عن هذه التساؤلات تتطلب منا الرجوع إلى سنوات نشوب الثورة الفرنسية التى أفرزت هذا النوع من الزعامات وتركتهم يلطخون أسمى حدث فى القرن الثامن عشر بالدم والحقد والكراهية ..

ظروف الثورة الكبرى :

كانت فرنسا تحكم من خلال ملكية غبية أساءت إلى نفسها وتاريخها بسوء تصرفات حكامها ، وعاش هؤلاء الحكام فى غيبوبة عما يحيط بهم ، وعزلوا أنفسهم عن شعبهم وتحالف هؤلاء الحكام مع مصاص الدماء من رجال الإقطاع وكبار رجال الدين ، ولكن الشعوب الحية لا تسكت طويلاً عما يحيق بها من ظلم وإرهاب ولذا سرعان ما نشبت الثورة الفرنسية عقب سلسلة من الأحداث ، والتى أنتهت بضياع هيبة الملكية وبتردى فرنسا فى فوضى اقتصادية وأزمات مالية ، وكان يحكم فرنسا وقت نشوب الثورة ملك ضعيف الشخصية متردد خاضع لأهواء زوجته الغريبة عن الشعب الفرنسى وإذا كانت هناك مقولة تاريخية صحيحة إلى حد ما ، وهى أن لويس الـ ١٦ ورث الثورة عندما ورث العرش لأن الثورات لا تنبت من فراغ وفرنسا كانت حبلى بالثورة ، وقت ولاية لويس الـ ١٦ ، غير أن لويس ساعد على اندفاع تيار الثورة بسبب سلوكه وعجزه عن إيجاد الحلول لمشاكل شعبه واستمراره فى نفس سياسة أسلافه رغم تغير الظروف .

وكما نعلم فإن الثورة لا تنشأ ولا تقوم نتيجة للظلم ، ولكن نتيجة للإحساس بالظلم فقد رزقت فرنسا بمجموعة من الكتاب والمفكرين ، حركوا مشاعر شعبها من أمثال « فولتير » و « جان جاك روسو » و « مونتسكيو » و « ديدرو » ومن خلال أعمالهم أحست الجماهير الفرنسية أن الحياة بلا حرية لا معنى لها ، وأن الإنسان ولد حرًّا ، ولكن السلطة الظالمة تكبله بالقيود ، وبدأت أحداث الثورة فى ١٤ من يوليو سنة ١٧٨٩ بتحطيم سجن الباستيل قلعة الظلم فى فرنسا ، وبعدها انطلقت الجماهير الفرنسية تحطم كل معالم عصر الإقطاع لتبنى مجتمعًا عادلاً طالما حلمت به ، ولكن الثورة لم تلبث أن تعثرت ووقع أبطالها فى أكثر من المحظور بل إن بعض قيادتها مارسوا نفس. ما كانوا يعانون منه قبل أعدائهم وإذا كان ذلك مقبولاً فإن المفروض قطعًا ألا يمارسوا الظلم تجاه أصدقاء الثورة أو من قامت الثورة من أجلهم ، ودخل رجال الثورة فى صراع مع بعضهم البعض وكانت الجماهير هى الضحية .

ورغم أننا لا ننكر على الثورة الفرنسية أنها أم الثورات التحررية إلا أن الثمن الذى دفعه الشعب الفرنسى كان غاليا حتى تستقر قيمة الحرية فى النفوس وسيهتم التاريخ الفرنسى على الدوام بأمر « ميرابو » ذلك المغامر السياسى والخطيب الشعبى والمشرع على أنه الرجل الذى اجتهد عبثًا فى وقف تيار الفوضى الجارف وإنقاذ

تاج فرنسا ، وذلك لاعتداله ولأن ما تنبأ به حدث فعلاً من حيث حمامات الدم التى غرقت فيها فرنسا سنوات طوال وكان « ميرابو » ، هو صاحب الكلمات النارية التى واجه بها مندوب الملك عندما أراد أن يفض مجلس طبقات الأمة حيث قال لهذا المندوب :

« قل لسيدك – يقصد الملك – نحن هنا بأمر الشعب ولن نبرح أماكننا إلا على أسنة الرماح » .

وتطورت الظروف الداخلية فأثارت ملكيات أوربا التى هبت للدفاع عن ملكية فرنسا ومن ثم أساءت إليها دون أن تدرى ، فكان أن اعتبر الثوار الملك لويس هو رأس الخطر ، وأن فرنسا مهددة من خلاله ، ومن ثم قبض على العائلة المالكة وسجنت ، وحوكم الملك وتقرر إلغاء الملكية من فرنسا وأعلنت الجمهورية فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ .

وتبين أنه لكى تدافع فرنسا الثائرة عن نفسها فى مواجهة أوربا الرجعية وملكياتها الفاسدة ، لابد وأن تخضع فرنسا لشكل دقيق من أشكال الاستبداد يغاير كل المغايرة نظام تشتت السلطان السياسى الذى وجد له أنصارًا ومجندين فى مستهل الثورة ..

وهكذا كان المناخ السياسى والظروف التى أحاطت فرنسا فى الداخل والخارج هى التربة التى أفرزت عصر الإرهاب بزعامة روبسبير بعهد الطغيان الذى ليس له مثيلاً فى النهاية .

إن مفتاح إدراك كنه الثورات هى أنها تحركها وتديرها نهيئات قليلة العدد شديدة التطرف ، ولقد تكونت فى أبريل سنة ١٧٩٣ حكومة من اليعاقبة أى المتطرفين المعروفين تاريخيًّا باسم حزب الجبل ، وهذه الحكومة عرفت باسم لجنة الأمن العام « وقد دخلها روبسبير فى ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٣ ومن هذا اليوم سيطر على هذه اللجنة بقبضة حديدية وأصبح هو حاكم فرنسا الحقيقى ولقد تميز عن غيره من رفاقه بنزاهته عن المال العام .

وللتاريخ نقول إن روبسبير أنقذ فرنسا من كثير من الأخطار الحربية ولكنه سطر تاريخه بعار لا يمحى يلصق باسمه حتى نهاية البشرية ، وما قيمة ما يمكن تحقيقه أمام ما يبقى لاصقًا بالأذهان مضادًا لقيم الإنسان .

كان روبسبير نحيل البدن صغير الجسم متوسط الطول ذو رأس كبيرة وصوت ناعم يتمتع بكلمات نارية يسحر بها سامعيه ، ويحفظ مجموعة من الشعارات تدير رءوس العامة ، كلها صفات التصقت بالطغاة فى زمانه أو من سبقه أو من لحقه .

كان روبسبير يعتقد نفسه أن فرنسا مجسدة فى شخصيته ، وأنه بعث ليرسى قواعد الفضيلة بين عشيرته وذويه وأهله ، كان يؤمن بكل كلمة تخرج منه ورغم أن خطبه كانت سهلة العبارة إلا أنها كانت مليئة غلًا وحقدًا ، وقد عرف عنه أناقة الهندام إلى

أقصى حدود الأناقة ، وأدب السلوك والتظاهر الرائع بالتمسك بالفضيلة ... ولم يكن لكل منشق على عقيدته سوى علاج واحد بسيط هو المقصلة ..

روبسبير . . والطغيان :

اتهم رفيقيه هيبر ، وشومت فى مارس سنة ١٧٩٤ بتهمة الإباحية والإلحاد ليخلو له الجو وفى أبريل من نفس العام جز نصل المقصلة رقبة صديقيه أو بمعنى أدق منافسيه دانتون وديمولان ، وكان ذنبهما أنهما طالباه بالرجوع إلى الرحمة والاعتدال .

لقد كانت أساليب التعذيب فى عهد روبسبير رهيبة فى المجال النفسى للضحية حيث كان يضع ضحاياه فى قبر تحت الأرض ، وكل يوم يرسل كشفا يقرأ عليهم به من تقرر إعدامهم ، ولم يكن أحد بقادر على التنبؤ بمن سوف يأتى الدور عليه ، وهكذا جن جنون الضحايا حتى قبل أن يساقوا إلى حبل المشنقة والذى لم يكن حبلاً ولكنه كان سكينا حامية هى سلاح المقصلة .

وأصبح منظر الدماء عاديًّا ، وتجر الضحية كالكلب الأجرب وحوله أنصار روبسبير من رعايا باريس يهتفون ضد الضحية ويصفقون عليها وكأنهم فى حفل زفاف يهللون ويتصايحون ، ألاما أبشع أن تهان الإنسانية بهذه الصورة .

لقد ألغى روبسبير الديانة الكاثوليكية من فرنسا ، وجعل عبادة الكاهن الأعظم تلك العبادة التى نصب نفسه فيها كاهنًا أكبر ، أليس ذلك جنونًا حقيقيا وهل يملك إنسان عاقل أن يحول عقيدة شعب طوال آلاف السنين إلى عبادة فرد مهما كانت صفاته وخصاله كما ألغى التقويم الميلادى وابتدع تكوينًا جديدًا لفرنسا مبتدئًا ذلك ببداية التاريخ الذى قامت فيه الثورة .

وفى ظل الإرهاب كسدت تجارة الشعب ، وازدادت به الضائقة المالية ، وظهر حوله التجار الجشعون وكأن عصر الملكية قد عاد من جديد حيث ارتفعت الأسعار بشكل لا مثيل له ، وبدأ الناس يترحمون على عهد الملكية وما كان فيها إلى حد ما من احترام لآدمية الإنسان إذا ما قورن ذلك بعهد روبسبير .

لقد كان روبسبير يشنق أعداءه موهمًا الشعب أنهم أعداء الثورة ، ولقد استعان روبسبير بجناحين لتدعيم حكمه المطلق ، وتثبيت أحكام طغيانه هما سان جوست الذى يعتبر العقل المدبر لكل أفعال روبسبير وجون بارير الذى يعتبر اللسان المعبر عن أعماله .

ولولا رحمة الله بفرنسا والفرنسيين لكانت فترة حكم روبسبير قد طالت وامتدت أكثر من سنة لأن الواقع التاريخى ، يحكى أن ما فعله روبسبير فى عام كان أقسى على الشعب الفرنسى مما فعله غيره فى أكثر من مائة عام .

وفى تلك الفترة التى امتدت من عام ١٧٩٣ حتى عام ١٧٩٤ ، كان التعصب الدموى يسود فرنسا وكان منظرًا عاديًا أن يساق آلاف المواطنين صباحًا ومساء لتقطع رءوسهم ولكى ندلل على ما نقوله فإنه حينما أبدى روبسبير قلقه من كثرة أعداء الثورة ، تقدم إليه سان جوست باقتراح مصادرة أملاك كل من تعلق به شبهة ولكن باربر الجناح الثانى للطغيان يقول له :

« لن تبلغ السفينة المرفأ إلا فوق بحر قان لجججه الدماء » ثم لا يلبث أن يسانده سان جوست بقوله :

« لا يصلح حال أمة إلا على تلال الجثث » :

ولقد شكل روبسبير فى عهده « محكمة ثورية » هى أعجب محاكم التاريخ كما وصفها الجنرال « جوفيون دى سان سير » فى مذكراته :

« كانت هذه المحكمة لا يقبل أمامها محامون ، وشخصية المبلغ لا تظهر أمامها ولا يجىء ذكر اسمه ، ولا يواجه بمن أبلغ عنهم ، لا أوراق لهم ولا سجلات وحتى الحكم لا يكتب ولا الاستجواب إنما كان الأمر يجرى شفاهًا ، يقبض على المتهم فى الساعة الثامنة ويحاكم فى التاسعة ويعدم رميا بالرصاص فى العاشرة. وكانت ترصد مكافأة مالية للمبلغ دون أن يظهر اسمه بأى حال ، ويواصل الجنرال قوله فى المذكرات :

وبهذه الوسيلة الدنيئة أمكن الحصول على بعض الضحايا الذين كانوا يطفئون أكلة لحوم البشر من أمثال روبسبير وسان جوست .

بداية الأزمة :

ولا شك أن عملية إلغاء الدين المسيحى من فرنسا سقطة من سقطات روبسبير وكانت فى الواقع بداية الأزمة الحقيقية بينه وبين الجماهير الفرنسية المتدينة – خاصة بعد أن استولى روبسبير على كنيسة روتردام ، ووضع وسط قدس الأقداس تمثالاً لإحدى الممثلات رمزاً للحرية وسموها معبد العقل ثم صدرت الأوامر تباعًا بإغلاق كل الكنائس .

ولقد بلغ عدد من صدرت ضدهم أحكام بالإعدام خلال عهد روبسبير نحو سبعة عشر ألفا ، أما إذا أضفنا من سقطوا فى ميدان الحرب الأهلية ونسبة من توفوا فى السجون قبل تنفيذ الأحكام فيهم فسنجدهم حوالى أربعين ألف قتيل وطبقًا لرواية المؤرخ الفرنسى « جورج ليفيير » أستاذ التاريخ بجامعة باريس وعضو المجمع اللغوى الفرنسى أن عدد المقبوض عليهم من المشتبه فيهم فى عهد روبسبير وصل إلى ما لا يقل عن ٣٠٠ ألف مواطن ، وإذا ما أضفنا إلى كل ذلك ما حدث فى الأيام الأخيرة لحكم روبسبير من إلغاء كل تحقيق قبل المحاكمة ، وبترك الشهود يختارون حسب هوى المحكمة ،

وبرفض السماح للمتهم أن يحصل على محام يدافع عنه هذا بالإضافة إلى أن المحكمة كانت مجبرة أن تختار بالحكم إما بالبراءة وهذا كان لا يحدث قط - وإما بالإعدام - ، إذ كان هذا قد حدث فإن كابوس الرعب قد ازداد نتيجة للقبض على النواب ومحاكمتهم بحيث أصبحت عربات السجون تملأ يوميًا بالضحايا البشرية ، فإنه حتمًا بعد هذا كان لابد وأن يحدث شيء ولعل أبسط مظاهر هذا الشيء هو أن الإرهاب لابد وأن ينقلب ضد الذين ابتدعوه .

أكبر عدو للأحرار :

ورغم ما شاب عصر روبسبير الإرهابى من محاولات لإقناع الجماهير بأنه يعمل من أجل شرف الجمهورية وحماية الحرية من العابثين بها إلا أنه هو نفسه كان أكبر عدو للأحرار ، ولقد صدق عليه ذلك المثل الذى يقول : « أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك » ، نذكر من أفعالهم المداراة لإقناع الجماهير بأسلوب حكمهم ما فعله « سان جوست » ظهيره فى الطغيان عندما قام بالقبض على المدعى العام لمحكمة الثورة فى إقليم « استراسبورج » وكان هذا المدعى من أصل ألمانى ويدعى « شنايد » وقد عمل فى مرحلة من حياته أستاذ اللاهوت فى بون وتدرج فى سلك الرهبان الفرنسيسكان . ثم خلع الطيلسان والزنار ودرج فى زمرة غلاة الثورة الفرنسية المعروفين « اليعاقبة » ، وقد بلغ من جبروته أن

أمر بصنع مقصلة « نقالى » ودار فى المحكومين عسفًا وتقتيلاً وكانت غالبيتهم من مساتير الناس لا شأن لهم بسياسة ولا بحكم ، أما الأثرياء فقد ساس أموره معهم بالمعلوم ثم فرض على فتاة ثرية الاقتران به ، وقد أمر سان جوست بانتزاع الرجل من فراش عرسه بليل ، وأمر أن يربط بخشب المقصلة ، ويعرض على الناس من الصباح حتى بعد الظهر وفوق رأسه لوحة مكتوب عليها من جراء الاعتداء على شرف الجمهورية » وأرسل هذا المدعى مقبوضًا عليه إلى باريس حيث حوكم وأعدم ، ولكن هذا كله لم يحل دون أن يصدر سان جوست أوامره باسم روبسبير بإعدام ثلاثة وتسعين من الأهالى الفرنسيين فى ستراسبورج أمثولة وإرهابًا ..

لقد عاشت فرنسا خلال عصر روبسبير وسائل إرهابية شرسة لإقرار النظام ظهرت واضحة فى عدد الضحايا التى أريقت دماؤها وفى ذلك الاكتتاب الذى فرض على الفرنسيين بالقوة لحل أزمة فرنسا المالية حيث أن السادة الحكام لا يريدون أبدًا المساس بمخصصاتهم المالية .

ولكن من المهم أن ندرك أن الجريمة التى ارتكبها روبسبير ومن معه من عصبة ساعدته على سيادة حكم الإرهاب فى حق « دانتون » وجماعته لم تنس حتى الآن من تاريخ الثورة الفرنسية إلا أنه والحق يقال إن فرنسا نكبت بمجموعة تالية بعد روبسبير

إلا وهى جماعة « باراس وتاليان ونوشيه » ساقت فرنسا إلى كثير من المآزق ولم تخلصها من تلك المآسى التى كانت تشكو منها فى عهد روبسبير .

نهاية روبسبير :

مضى روبسبير ، ذلك النمر الضارى ، دراكولا مصاص الدماء ، قضى على نفسه بتطرفه واشتطاطه فقد أصدر فى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٤ قانونًا كان بمثابة السيف على رقاب أعضاء المؤتمر الوطنى الفرنسى ، بمقتضى هذا القانون حرم أعضاء المؤتمر من حصانتهم البرلمانية ، وكان يهدف من وراء هذا القانون الإطاحة بكل من يرفع رأسه معارضًا إياه أو مخالفا أفكاره ، ولكنه نسى ما قد يصنعه الخوف فى لحظة اليأس ، ذلك أن الشجاعة قد تدب حتى فى قلب الجبان إذا ما اضطر للدفاع عن نفسه ، وخشى أعضاء المؤتمر الذين وعوا درس المقصلة جيدًا ، خشوا على أنفسهم ولذا دبرت مؤامرة ضد « روبسبير » وأعوانه واتفق كل من « باراس وتاليان » متزعمين المؤامرة وهما من رجال الثورة اللذان كانا خائفين على ما يفعله « روبسبير » ومن معه ، ولذلك عزما على التخلص من هذا الطاغية ، وبدلا من استخدام الخطب والكلمات لإسقاطه استخدمًا نفس أسلحته ، أى القوة ومن ثم جهزا قوة عسكرية واقتحما بها دار البلدية التى كان بها روبسبير يحاول تبرير جرائمه

وتدبير جرائم جديدة ، ونجحت إحدى الرصاصات التى أطلقت عليه فى أن تصيب فكه واقتبد وهو يقطر دماء إلى المقصلة ، كى يذوق نفس الكأس التى أذاقها للكثير من فرائسه .

وهكذا انتهى الكابوس المخيف الطويل ، وزالت فجأة حمى التذبيح الممقوتة التى كلفت باريس وحدها ألفين وستمائة ضحية وبقية أنحاء فرنسا أكثر من ثلاثين ألف قتيل ، لقد وجهوا له تهمة الخيانة العظمى فانفض من حوله أنصاره وتركوه لمصيره المحتوم ، وانتهى هوان الشعب الفرنسى بتخلصه من حكم الطاغية وبدأت روح الأمل تدب من جديد لإقامة مجتمع الحرية والإخاء والمساواة الذى افتقدته الجماهير بعد ظلام ليل طويل .

وهكذا يتأكد لنا فى النهاية أن الناس لا يفسدون بممارستهم القوة ولا هم ينحطون ويذلون بالتزامهم عادة الطاعة ، ولكنهم يفسدون بممارستهم قوة يعلمون أنها غير مشروعة وينحطون ويذلون بانصياعهم لحكم يعتبرونه مغتصبًا وظالمًا ، تلك هى إحدى عظات التاريخ التى لا يجب أن تغيب عنا نحن البشر سواء كنا حكامًا أو محكومين .

حسنى الزعيم

طاغية سوريا

فى ظل حكم الطغاة يصبح الخوف سيفاً مسلطاً على رقاب الجماهير ، حيث الفزع والرعب لهما الكلمة العليا ، القلق يعربد يخلع الأفئدة والعدل صريع فى الطرقات والشرفاء مجبرون على الانحناء ، ولكن يظل الأمل فى قلوب الأحرار يضيىء الطريق إلى المستقبل مهما كانت صلافة الحاكم واستبداد الجالس على كرسى السلطة .

والشعب عندما يكشف خداع زعيم من زعمائه ، أو حاكم من حكامه لا يفقد هذا الزعيم أو الحاكم مكانته فحسب ، وإنما يفقد الشعب ثقته بكل من يحكمه ، فليس السياسى وحده هو ضحية أكاذيب الساسة المخادعين .

والطاغية يعيش بروح ذئب يسطو على الفريسة ، أينما تلوح له ينقض على كل معارض يقف فى مواجهته ويتبع أحسن أساليب الغدر والخيانة والخداع ليضمن بقاءه فى السلطة واستمراره فى فى الحكم .

وفى عهد الطغاة تسقط المثل والمبادئ صريعة المصالح والنفعية وتطعن القيم والفضائل بالحراب ، فتخر مشحونة بجراح الخسة والدناءة .. الأنانية تسود والانتهازية تتفشى ، والأحقاد تسيطر ، وطاغية هذا الفصل هو حسنى الزعيم الذى قاد أول انقلاب عسكرى فى سوريا .

وقد حدث انقلاب حسنى الزعيم فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩ وكان حسنى الزعيم فى منصب رئيس أركان حرب الجيش السورى ، وقد تم هذا الانقلاب دون إراقة دماء ولم تثر إزالة النظام القائم وقتئذ شيئاً من الدهشة ، ولم تبعث فى نفوس السوريين أى أسى ذلك أن الخيبة الناجمة عن الهزيمة فى فلسطين والخوف والقلق من المستقبل جعل الناس يرحبون بتغير نظام الحكم .

والشعب عادة ما يزداد تذمره من حصر السلطة فى أيدى فئة قليلة من الناس ومن سوء الإدارة بوجه عام ، وأعلن أن هدف الانقلاب تقوية الجيش وإصلاح أداة الحكم ، ولا يمكن أن ينكر أحد أن إصلاحات كثيرة فى الأيام الأولى لحكم حسنى الزعيم قد تمت ، ولكن خروج الجيش عن مهمته وأضواء السلطة وخضوع الزعامات المدنية للقوة العسكرية ، أدى فى النهاية إلى انحراف حسنى الزعيم الذى عمد إلى تنصيب نفسه رئيساً للدولة ، وبدأت تسيطر عليه مظاهر العظمة ، وكان الزعيم فى علاقاته مع الدول العربية

مضطربًا غير متزن ، فلقد بدأ حياته السياسية بالتقرب إلى العراق والأردن ، ولكنه سرعان ما ترك الأسرة الهاشمية ثم اتجه إلى مصر والسعودية ثم انقض عليهما فى تصريحات ضد أنظمة الحكم فيهما ، ولا شك أن تهور حسنى الزعيم وعدم اتزانه فضلاً عن استبداده فى الحكم ، كان سببًا فى انهيار الأمل الذى تعلق به الجميع بالنسبة لنظام حكمه ، وكل ذلك أدى فى النهاية إلى انفضاض أعوانه من حوله وكان أن وقف الجيش نفسه ضده ولم يلبث أن قام أصدقاؤه بانقلاب ثان أدى إلى اغتيال حسنى الزعيم بعد محاكمة صورية ، ولم يكن قد مر عليه فى السلطة أكثر من عام .. ولكن فلنبدأ القصة من بدايتها .

سوريا . . الشعب والأرض :

مساحة سوريا تصل إلى حوالى ١٨٥ ألف كم٢ والشعب السورى مؤلف من بدو وعرب فى أكثريته ومن أقلية تركية على الحدود الشمالية وبضع عشرات من الألوف من الأكراد فى الشمال الغربى ، وبضعة آلاف من الأشوريين يعيشون فى الشمال الشرقى ، وأقلية ضئيلة من الشركس وحوالى مائة وخمسة آلاف من الأرمن لجئوا إليها بعد مذابح الأناضول إلى جانب ما يقرب من ربع مليون من الدروز ، يعيشون فى منطقة جبل العرب المعروف باسم جبل الدروز ، ويصل تعداد سوريا حاليا حوالى ثمانية ونصف مليون نسمة ،

وتشترك سوريا فى الحدود مع العراق جهة الشرق ، وتركيا فى الشمال والأردن ، وفلسطين فى الجنوب ويحدها البحر المتوسط ولبنان من ناحية الغرب .

وإذا كان الأشوريون يفضلون التحدث بلغتهم السريانية والأرمن بلغتهم الأرمنية الغربية ، والأتراك يتفاهمون بلهجة قاسية مغولية الأصل ، والأكراد بلهجة كردية فإن لغة السوريين جميعًا هى اللغة العربية التى يتحدثون بها منذ الفتح العربى لسوريا .

والطوائف الدينية فى سوريا اليوم تتعدى الثلاثين طائفة ، وعمليا إذا أخذنا بالتقسيم الدينى وجدنا أن المسلمين يشكلون أربعة أخماس الشعب السورى ، بينما يشكل المسيحيون الخمس الباقى ، أما اليهود فعددهم قليل لا يزيد عن عشرة آلاف يتركز ثلثهم فى دمشق .

وقد حددت الفوارق الاجتماعية المختصة بالزواج هذه الثنائية الطائفية والدخيل المحتل فى الماضى قد غذاها ، غير أن السواد الأعظم من الشعب أظهر دائمًا عزوفه عن مثل هذه السياسة الطائفية ، والحقد الذى خلفته الحروب الصليبية قد تطهرت منه النفوس ، والدليل على ذلك التعايش السلمى والتعاون المثمر ، والتضامن والتكاتف الوثيقان اللذان يسودان التاريخ السورى .

صورة الحكم فى أعقاب حرب فلسطين :

كان لهزيمة فلسطين أثر كبير فى تدهور أحوال سوريا ، وزادت فظائع سوء الإدارة إلى جانب الاختلاسات المالية ، واهتزت صورة الاقتصاد السورى ورغم أن شكرى القوتلى كان على رأس الجمهورية ، وهو أحد أبطال الكفاح من أجل الاستقلال ومشهور بنزاهته إلا أن الكثير من هذه الأمور المزرية كان يحدث دون علم منه ، ولقد عمت النقمة كافة الأوساط الشعبية فما كان من الجيش إلا أن استغل هذه النقمة وجهها الوجهة التى يريد ، والجيش فى منطقة الشرق الأوسط ، أسوة بكل مناطق العالم الثالث ، كان ولا يزال يلعب دور الرادع المسكن ، هذا الدور الذى كان يجب أن تلعبه الطبقة البرجوازية ، ولكن هذه لا نفوذ ولا حول لها ، لأن الدائرة الاستعمارية حرصت على القضاء عليها .

أى أنه يمكن أن يقال إن سوريا فى الفترة منذ حصولها على الاستقلال وحتى تدخل الجيش سنة ١٩٤٩ ، تميزت بعدم الاستقرار السياسى وبضياع المصالح الشعبية فى ظل انقضاض كبار الملاك والبرجوازية الكبرى على نتائج معركة الاستقلال الوطنى .

من هو حسنى الزعيم :

ولد فى مدينة حلب من أم كردية وأب تركى ، وقد تخرج فى الكلية الحربية فى إستانبول وفى الكلية العسكرية بدمشق :

واشترك فى القتال فى الحرب العالمية الأولى مع الجيش العثمانى ، وقاتل إلى جانب قوات الملك فيصل الأول فى سوريا ضد الفرنسيين ، كما اشترك فى القتال مع قوات فيشى ضد قوات ديجول ، وقد قبض عليه الحلفاء بعد دخولهم سوريا وتوسط للإفراج عنه شكرى القوتلى - الذى قام حسنى نفسه بالانقلاب عليه - وقد تولى منصب مدير الشرطة فى سوريا ثم نقل إلى الجيش وكان يتشبه بالجنرال فرانكو ، ويظهر إعجابه بنابليون وهتلر وموسولينى وتمنى أن يستعيد فى شخصيته شخصية كمال أتاتورك ، وكان حسنى الزعيم متزوجًا من سيدة عمرها ٣٢ عامًا تركية الأصل وكانت صاحبة فكرة منح المرأة حقوقها .

وبمجرد أن تولى سلطاته نقض تعهداته ، ذلك أن أول أمر أصدره حسنى الزعيم يوم استيلائه على الحكم هو إلغاء جميع الألقاب فى سوريا ولكن خرج علينا بلاغ مجلس الوزراء السورى بأن لقب الزعيم هو « حضرة صاحب الدولة الزعيم السيد حسنى الزعيم رئيس مجلس وزراء الجمهورية السورية ووزير الداخلية ووزير الدفاع والقائد العام للجيش والقوات المسلحة فى سوريا »

وفى خلال أربعة أيام منذ توليه السلطة أعلن تعديلين وزاريين فى وزرائه .. كان دمويًا رغم أن انقلابه كان أبيض ولكن الواقع أنه وضع على رأس الانقلاب وحاول سرقته ، ويكفى أن نقول

إنه خلال أيام من وصوله للسلطة أصبح يقلد هتلر فى كل خطواته حيث جعل من سوريا حلقة للجاسوسية بعضها ضد بعض ورفع رأس الأقليات فى مواجهة الأغلبية وعندما وصلته أنباء أن حماة رئيس وزراء سوريا السابق قالت عنه إنه لص لم يخجل أن استدعاها وزج بها فى سجن المزة .

وكما ارتفع فجأة فإنه سرعان ما سقط فقد كانت نهايته سوداء حيث قتل هو ورئيس وزرائه على بعد ٢٠٠ متر من سجن المزة بعد أن ربطا إلى الشجر وأطلق عليهما الرصاص بلا رحمة .

ولعل أغرب عقوبة وقعها خلال فترة حكمه كانت تلك التى لحقت بميشيل عفلق وزير المعارف ، الذى حلق له شعر رأسه وزج به فى معتقل المزة بعد أن انتقد سياسته فى منشور ووزعه على الجماهير .

ولكن كيف هيأت الظروف لقيام أول انقلاب عسكرى فى الشرق الأوسط وفى العالم العربى ؟ والإجابة على ذلك ، أن المناخ السياسى فى سوريا كان تربة مهيأة لظهور الطاغية حسنى الزعيم ، الذى رغم أن إنقلابه لم يستمر أكثر من أربعة شهور إلا أنه كان فاتحة لعدة إنقلابات شجعت قوى عسكرية أخرى لتقوم بمغامراتها ولم تكن تملك من الرصيد الفكرى شيئًا ودفعت شعوبها الثمن من عمرها ، وبدلاً من أن توجه قضاياها مع التحرر من المستعمر كان عليها أن تواجه حكامها المستغلين .

« هناك من المؤرخين من يعتقد أن أول انقلاب عسكرى هو انقلاب بكر صدقى الذى وقع فى العراق سنة ١٩٣٦ » .

المناخ السياسى الذى أدى للانقلاب العسكرى :

وحيث لم يكن فى استطاعة القوى السياسية الموجودة على السطح فى ذلك الوقت أن تتقدم ببرنامج عملى لإنقاذ سوريا مما هى فيه ، فإن حتمية تحرك القوات المسلحة للقيام بهذا الدور كان من الأهمية بمكان .

وهذه القوى السياسية يمكن تصنيف اتجاهاتها على الأسس التالية :

١ – الأحزاب التى تمثل التيار الدينى وكان يمثلها الإخوان المسلمين .

٢ – الأحزاب الأقلية وتتجسد فى الحزب القومى السورى .

٣ – الأحزاب المتطرفة اليسارية وتمثلت فى الحزب الشيوعى السورى .

٤ – الاتجاه القومى الاشتراكى ويتجسد فى حزب البعث العربى الاشتراكى .

٥ – الاتجاه القومى الوحدوى ويتمثل فى حركة القوميين العرب .

٦ - الاتجاه المحافظ والتقليدى وكان يمثله حزبان هما حزب الشعب والحزب الوطنى والواقع أن أى من هذه المجموعات السياسية كان غير قادر على الوصول إلى كرسى الحكم من خلال انتخابات نزيهة وبالتالى وقف معظمها عاجزاً عن طرح رؤيا عملية يمكن تطبيقها بالاسلوب الشرعى لحل مشكلات سوريا .

الإعداد للانقلاب وتنفيذه :

عادة قبل القيام بأى انقلاب تتم عدة اتصالات بين القوى السياسية وبين القوى العسكرية التى تنوى الانقلاب ، أو العكس وفعلاً فإن انقلاب حسنى الزعيم الذى تم فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩ قد تم بتشجيع ودعم عدد من القيادات السياسية إذ أنه فى بداية ١٩٤٩ بدأ عدد من القيادات السياسية ممن كانت تعارض نظام الحكم السابق فى التفاوض مع حسنى الزعيم ، من أجل القيام بحركة عسكرية للإطاحة بالنظام القائم ، ووافق حسنى على التعاون معهم وكان أشهر هؤلاء السياسيين أكرم الحورانى نائب حماه ، ذلك الرجل الذى عرف عنه اشتراكه فى الإعداد لكل الانقلابات العسكرية التى حدثت فى سوريا فيما بعد .

وبدأ التخطيط للانقلاب بين الحورانى وضابطين من مؤيديه : هما العقيد بهيج الكلاس ، والعقيد أديب الشيشكلى ، اللذان أصبحا أقرب معاونى حسنى الزعيم فى بداية الانقلاب ، وكان الكلاس

يشغل منصب نائب حسنى الزعيم فى القيادة بينما قاد الشيشكلى وحدات المشاة والمدرعات التى نفذت الانقلاب ، أما الحورانى فقد كان فى مقر قيادة الجيش يكتب البيانات الأولى للانقلاب .

ورغم ما جاء فى البيان من عزوف العسكريين عن الاستمرار فى السلطة حيث قال هذا البيان لجأنا مضطرين إلى تسلم زمام الحكم مؤقتًا فى البلاد غير طامحين إلى استلام الحكم بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديمقراطى صحيح محل الحكم الحالى ، ولكن لم تلبث أضواء الحكم أن جذبت حسنى الزعيم ليتربع وليخطط لبقائه فى السلطة أطول فترة ممكنة .

هوية الانقلاب :

كان انقلاب حسنى الزعيم سنة ١٩٤٩ إخلالاً بالتوازن القائم بين القوى المتنافسة على سوريا والتى تتركز فى محور القاهرة – الرياض من جهة ومحور عمان – بغداد من جهة أخرى – وكان رئيس الجمهورية شكرى القوتلى يميل إلى القاهرة الرياض ، ولذلك فبمجرد نجاح الانقلاب اعترفت به فورًا الأردن والعراق مما أثار شعور التحالف المصرى السعودى قبله ، ومن ثم بدأت مصر والسعودية تتصلان بحسنى الزعيم تعرضان عليه المعونات الاقتصادية والمساعدات العسكرية ولما نجح مسعى مصر والسعودية بدأ حسنى الزعيم فى مهاجمة العراق مما جعل هذا لا يعترف بالاستفتاء الدستورى

الذى جعل الزعيم رئيسًا لجمهورية سوريا ، وبدأ حسنى الزعيم علاقات قوية مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن خطأه أنه وافق على عقد إتفاقيات رغم أنف الحكومة السورية والقوى الوطنية السورية التى اعتبرت تلك الاتفاقيات نوعًا من محاولة الهيمنة والاحتواء والسيطرة الأمريكية على سوريا ، ومما زاد الطين بلة أن حسنى الزعيم وقع فى شهر يونيو سنة ١٩٤٩ اتفاقية جديدة ، غير اتفاقية التابلاين ، وذلك لإنشاء شركة أمريكية - سورية لاستثمار منابع الزيت فى سوريا - وقد جعلت هذه الاتفاقية نصف مساحة سوريا فى قبضة الأمريكيين رغم أن حصة الحكومة كانت ٥١٪ من الأسهم .

ولكل هذا لم يكن من المستغرب أن يقال عن إنقلاب حسنى الزعيم إنه تم بموافقة أمريكا وأنه كان موجها ضد بريطانيا واتضح ذلك من معارضة حسنى لمشروع الهلال الخصب أو سوريا الكبرى وتلك الاتفاقيات التى أجراها مع الولايات المتحدة والتى كانت حكومة سوريا فى ظل رئاسة شكرى القوتلى قد تباطأت فى اتخاذ قرار سريع بشأنها ، وقد وضح من كتابات المعاصرين لتلك الفترة وجود صلات قوية بين رجال المخابرات الأمريكية وبين حسنى الزعيم ، كذلك لا ننسى التأكيد على أن تطور العلاقات السورية التركية إلى التحسن بشكل ملحوظ فى عهد حسنى الزعيم رغم أن الجرح الغائر الذى سببته تركيا بانتزاع لواء الإسكندرونة من

سوريا إلا أن حسنى الزعيم أعلن تضامنه مع تركيا فى حالة وقوع عدوان مسلح عليها وكل ذلك ولا شك يزيد من هوية إنقلاب حسنى الزعيم .

إلا أنه إذا كانت لبعض الأصابع الخارجية نسبة فى تحريك حسنى الزعيم إلا أن ظروف سوريا الداخلية كانت هى الدافع وراء هذا الانقلاب وإن كانت القوى الخارجية بأكملها كل على هواها حاولت أن تستغل هذا الانقلاب لصالحها ، ولكن حسنى الزعيم رأى أن إنضمامه للجانب المصرى أفضل له من انحيازه للجانب الأردنى العراقى ومن ثم كان ذلك يعنى وقوفه مع الجانب الأمريكى فى مواجهة بريطانيا وحلفائها الهاشميين .

وبمجرد أن قام حسنى الزعيم بانقلابه اعتقل شكرى القوتلى والوزراء وأودعهم سجن « المزة المشهور فى تاريخ سوريا والذى يشبه سجن الباستيل فى فرنسا »

وقد حاول مستشارو قائد الانقلاب أن يجدوا للانقلاب مبررًا دستوريًا يقره مجلس النواب ، وسعوا لتكوين حكومة جديدة ، ولكن النواب فى معظمهم رفضوا التعاون مع هذا الشكل غير الشرعى ، ومن ثم فاوض حسنى الزعيم شكرى القوتلى على تقديم استقالته مقابل الإفراج عنه ، وقد وافق القوتلى نظرًا لسوء حالته

الصحية ، ولما كان يعانيه من معاملته فى سجن المزة وخرج القوتلى من سوريا حيث لجأ إلى مصر واستقر به المقام فى الإسكندرية .

حسنى الزعيم فى كرسى السلطة :

مثل كل الطغاة كان حسنى الزعيم مملوءا بالغطرسة والغرور والتهور وبدأت تداعب أحلامه فكرة سوريا الكبرى ، وذلك بضم شرق الأردن ، ولكنه دون أن يدرى دفع بالسوريين إلى معارضته لأن الملك عبد الله كان رجعيا فى أفكاره ، ومن ثم اضطر إلى نبذ هذه الفكرة ووصلت حدة غروره أنه كان يقول عن نفسه إنه زعيم ذو ثلاثة أجنحة ، زعيم بكنيته أى بلقبه وزعيم برتبته أى برتبته فى الجيش وزعيم للسوريين .. وكانت أوضح صفاته التردد وبدلا من حشد قواته على حدود إسرائيل حشدها على الحدود العراقية والأردنية واللبنانية ، وركز اهتمامه على إحكام قبضته على الجيش بعد أن فشلت كل مشاريعه ، وتحطمت كل آماله فى ضم العراق أو الأردن إليه .. ونظر إلى الضبط والربط أكثر مما كان ينبغى ، وأهمل قضايا المجتمع السورى بل لقد سرح آلافا من الموظفين ، وفى الوقت الذى كان يدعو فيه للاستقلال والوطنية بدأ يرتبط بمجموعة من الشركات الاستعمارية الأمريكية والبريطانية حيث عقد مجموعة من الاتفاقيات مع شركة التابلاين الأمريكية ، ومع بعض الشركات البريطانية للتنقيب عن البترول والبحث عن المعادن فى سوريا .

وبدأ يسلح مركز قيادته ، ويعزز جنود حرسه ظاناً أنه من خلال الإرهاب والقوة يمكن أن يستمر فترة طويلة على دست الحكم ناسيًا أن نفس السلاح يمكن أن يتخذ ضده للإطاحة به .

وإذا كان حسنى الزعيم قد فشل فى سياسته الخارجية ولم يحقق أمل السوريين فإن الفشل الذى لحق بسياسته فى سياسته الداخلية كان أشد مرارة وقسوة .

فالعسكريون يدعون أن استيلاءهم على السلطة هو من أجل تمهيد الطريق للإصلاح نتيجة لفشل القيادات السابقة ، ولكن ثبت من خلال الممارسة الفعلية أن استيلاء المؤسسة العسكرية على السلطة فى معظم البلدان ، لا يؤدى إلى تنمية سياسية حقيقية ولم تشذ فترة حكم الزعيم عن تلك النتيجة فلم يتم تطهير البلاد من الفساد ، ولم يحدث تغيير لصالح الجماهير ، صحيح أنه تمت فى البداية مجموعة من الإصلاحات ولكن الحساب الختامى كان فى غير صالح سوريا ، لقد كان متأثرًا بأسلوب كمال أتاتورك فى الحكم ولهذا اتخذ طريق العلمانية أساسًا لإصلاحه دون دراسة لواقع المجتمع السورى ناسيًا أن أتاتورك أوضح لزملائه منذ البداية الاختيار بين الجيش والسياسة ولكن رغم الإصلاحات التى تمت فى عهد حسنى الزعيم ، متمثلة فى إصلاح الجهاز التعليمى ومواجهة فساد الإدارة لدى الموظفين ، ومنح المرأة حقوقها السياسية وإصدار مرسوم بإلغاء

الألقاب ومرسوم آخر بالغاء الأوقاف الخيرية وتصفيتها وسن مجموعة من القوانين بدلاً من القوانين القائمة على أساس الشريعة الإسلامية ، وبدأ ينفذ بعض المشروعات المعطلة من الحكومات السابقة ولكن كانت تعوزه الأموال ومن ثم استخدم وسيلتين لضمان الحصول على الأموال اللازمة .

١ - فرض ضريبة الجيش على الدخل والإرث ففرضت ضريبة على الدخل الفردى والأرباح التجارية والصناعية .

٢ - تحويل مخصصات وزارات أخرى إلى الجيش .

وقد قام برفع مرتبات ضباط الجيش ، وزاد عدد الجيش فى عهده من خمسة آلاف إلى سبعة وعشرين ألف عسكرى .

ورغم إعجاب السوريين بهذه الإصلاحات إلا أن الطاغية بسلوكياته فى الداخل وبوعوده التى لم تحقق أثارا عليه سخط الشعب السورى ، وحكم منفردا ولم يعتمد على القوى السياسية فى عملية البناء والتغيير ، وذلك بالرغم من أن النخبة العسكرية كانت عاجزة بمفردها عن فهم تناقضات الحياة السياسية والاجتماعية مما دفع إلى انهيار الحكم العسكرى .

ولقد كانت مساوئ حكم حسنى الزعيم وطغيانه تتضح فى الآتى :

(أ) فشله فى تأكيد مبدأ المشاركة السياسية سواء من حيث علاقاته مع الأحزاب السياسية أو الجماعات السياسية الأخرى بل ومحاربتها ومنعها من ممارسة نشاطها .

(ب) حل المجلس النيابى وعدم وعده بإجراء أى انتخابات برلمانية وفى الوقت نفسه لم يحاول إيجاد أى بديل لهذه التنظيمات سواء بتأسيس حزب أو منظمة لملء الفراغ السياسى .

(جـ) تقييد حرية الصحافة واعتقال كل صوت معارض له .

(د) جمع قائد الانقلاب بيديه كل السلطات والمسئوليات فى الدولة مما أدى إلى تحول نظام حكمه بشكل واضح إلى الديكتاتورية العسكرية الفردية وهذا الحكم بلا شك لم يكن يتفق وتطلعات الشعب ، وبالتالى أثار الاستياء والسخط لدى جميع القوى السياسية فى المجتمع ، وكذلك لدى زملائه العسكريين خاصة بعد أن تضخمت ذاته ومن ثم فقد الزعيم الثقة للعناصر الأساسية التى شاركته فى الإعداد للانقلاب من أمثال : اكرم الحورانى ، والعقيد أديب الشيشكلى ، الذى كان قد تم تسريحه بناء على أوامر حسنى الزعيم ، وكل هذا دفع بالجميع للعمل ضد الطاغية من أجل الإطاحة به .

لقد فقد حسنى الزعيم ثقة الجماعات التقليدية باتجاهه نحو العلمانية ، وكانت غالبية الشعب تتوقع من جانبه إصلاحات جذرية

فى الحياة العامة أصابها اليأس لعدم تحقيق الوعود والآمال التى أعلن الحكم عن عزمه على تحقيقها .

ولعل هذا يعود إلى أن حسنى الزعيم مثل كل الطغاة بصفة عامة يأتون إلى السلطة بدون أية دراية أو خلفية أو تجربة فى شئون الحكم وبدون أى هدف أو برنامج أو عقيدة سياسية .

وعندما بدأ يخشى على نظام حكمه أحس بالخطر ممن ساعدوه ومن ثم بدأ يتخلص منهم الواحد تلو الآخر ، أو يبعدهم عن العاصمة ومن ثم لا عجب أن اعتمد على الأقليات فى داخل القوات المسلحة مثل الأكراد ، والشركس ، ومنح المراكز الحكومية لأفراد هذه الأقليات مثل إصراره على تعيين اللواء عبد الله عطفة الذى أخفق كقائد عام للجيش السورى فى حرب فلسطين — وزيرًا للدفاع وكان غير مرغوب فيه من الضباط السوريين .

ووضح أن حسنى الزعيم يعمل لنفسه وأخذ ينحرف عن الأهداف التى من أجلها قام بانقلابه ، خاصة بعد أن منح نفسه لقب المارشالية مما أثار السخرية عليه وقرب نهاية سقوطه بدأ يعتقل الضباط الأقوياء فى الجيش الذين كان يخشى تطلعاتهم نحو السلطة ولم ينس الشعب السورى ذلك .

عبدالكريم قاسم

طاغية العراق

يمثل العراق الطرف الشرقى لحدود الأمة العربية ، والعرب فى العراق يشكلون ٨٠٪ من السكان والباقى ١٦٪ أكراد ، ٢٪ أتراك ، ٢٪ من الإيرانيين والهنود الأرمن .

ويدين ٩٤٪ من السكان بالإسلام أكثر من الثلث منهم على مذهب الشيعة ، والباقى على المذهب السنى .

ويصل تعداد المسيحيين فى العراق نحو ٢,٥٪ يقيمون فى المدن الكبرى كالموصل وبغداد والبصرة ، هذا إلى جانب أقلية بسيطة من اليزيديين والصابئة واليهود .

ومن الجدير بالذكر أن مساحة العراق حوالى ٤٥٣,٥٠٠ كم٢ والعراق قطر عربى عريق ، ومنذ الجاهلية كان يسكنه بعض قبائل عربية من ربيعة ومعز وكان له دائمًا دور كبير فى تطور الحضارة العربية والإسلامية حيث كانت بغداد عاصمة العباسيين ، هى مركز الإشعاع الحضارى للمجتمع الدولى لقرون طويلة وتجاور العراق الآن تركيا وسوريا وإيران وشرق الأردن وإذا ، كانت الخلافة

العباسية قد انتقلت من بغداد إلى القاهرة عقب الهجوم المغولى على العراق على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فإن القاهرة انتقمت للعراق بدحرها المغول فى معركة عين جالوت بعد ذلك بسنتين ..

وبمجىء العثمانيين إلى أرض العراق ، أصبح العراق مجرد مجموعة من الولايات تخضع لإستانبول حتى هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٨/١٩١٤) ، فأصبح العراق خاضعًا للانتداب البريطانى الذى كان فى واقعه احتلالاً كاملاً ، وحاول الاستعمار الإنجليزى أن يجعل العراق جزءًا من إمبراطورية الهند وأن ينقل ملايين الهنود إلى العراق حتى تزول معالم العروبة فى العراق وتتحطم قوميته العربية ، وتعرف هذه السياسة باسم « تهنيد العراق » والتى فشلت فشلاً ذريعًا ، ولكن الحركة الوطنية فى العراق تصدت للإنجليز الذين اضطروا إلى توقيع عدة معاهدات مع العراق حتى يضمنوا لأنفسهم حماية مصالحهم ، فعقدوا معاهدة يونيو سنة ١٩٢٦ ثم معاهدة يونيو سنة ١٩٣٠ ، وانتهى الانتداب البريطانى على العراق فى أكتوبر سنة ١٩٣٢ ، وهو تاريخ دخول العراق منظمة عصبة الأمم كدولة مستقلة ولكن ذلك لم يتيسر إلا بعد أن جعلت مدة المعاهدة بين البلدين (الموقعة سنة ١٩٣٠) حوالى ربع قرن أى أن موعد نهايتها كان سنة ١٩٥٥ ولكن فى

يناير سنة ١٩٤٨ اضطرت حكومة بريطانيا إلى توقيع معاهدة جديدة فى بورتسموث مع حكومة بغداد ، وجاءت هذه المعاهدة مناقضة تماما لأمانى الشعب العراقى مما أدى إلى إلغائها .

الحكم الملكى :

فى شهر أبريل عام ١٩٢٠ أصبح العراق تابعا للانتداب البريطانى بناء على قرارات مؤتمر « سان ريمو » ، وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ توج الملك فيصل ملكًا على عرش العراق وهو فيصل بن الشريف الحسين حاكم الحجاز المعروف وفيصل هذا كان أخو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن فيما بعد .

وقد تعرض العراق فى فترة الحكم الملكى للكثير من القلاقل والاضطرابات ، والتى أدت إلى سخط الشعب العراقى على حاكميه ، وبالذات أولئك الساسة الفاسدين الذين استغلوا العهد الملكى أبشع استغلال ، نذكر من هذه القلاقل المذبحة التى قام بها الجيش العراقى بناء على الأوامر الصادرة له فى سنة ١٩٣٣ ، ونذكر أيضا ثورة القبائل على طول نهر الفرات فى سنتى ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ثم ذلك الانقلاب العسكرى الذى وقع فى عام ١٩٣٦ - (أكتوبر) بقيادة الجنرال بكر صدقى ، وتم بمساعدة بعض العناصر السياسية الراغبة فى الإصلاح والساخطة على الوضع ولكن الانقلاب فشل وقتل بكر صدقى بعد أقل من سنة ، أى فى أغسطس ١٩٣٧

وفى عام ١٩٣٧ انضم العراق إلى حلف « سعد أباد » ، وكان هذا الحلف يضم إلى جانب العراق كلا من تركيا وإيران وباكستان وبالطبع حصل على « بركة الاستعمار الإنجليزى » .

وفى سنة ١٩٤١ قامت فى العراق ثورة بزعامة رشيد عالى الكيلانى ، ولكن سرعان ما قضى عليها بفضل حراب الإنجليز ، ولما وقعت معاهدة « بورتسموث » وكانت شروطها مجحفة بالعراق ثارت ثائرة الشباب سواء فى الجيش أو من المدنيين مما أجبر بريطانيا على إلغائها والعودة إلى معاهدة ١٩٣٠ ، وقد منعت السياسة البريطانية العراقيين من المشاركة الفعالة فى حرب فلسطين الأولى سنة ١٩٤٨ ، وكل هذا بلا شك كان يمهد لمزيد من السخط الشعبى ، ولم يلبث ساسة العراق فى العهد الملكى أن جروا العراق إلى سياسة المحالفات إلى المعسكر الغربى ، ونظير إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٠ ، والتى كان من المفروض أن تنتهى فى عام ١٩٥٥ بشكل تلقائى ومن هنا نجد العراق فى شهر فبراير ١٩٥٥ يتحالف مع حكومة تركيا ، وفى أبريل من نفس العام تنضم إلى هذا التحالف بريطانيا ، وفى سبتمبر تلحق بهما باكستان ثم فى أكتوبر من نفس العام أيضا تضم لهم إيران ، وهكذا اكتمل حلف بغداد من خمس دول فى سنة ١٩٥٥ هى العراق ، تركيا ، بريطانيا ، باكستان ، إيران ، وكان بطل هذا التحالف من الجانب العراقى السياسى الداهية نورى

السعيد والذى كان عدوا للحركة القومية العربية على حساب الارتباط بالمصالح الغربية .

والعجيب أن العهد الملكى كان يضم مجموعة من الأحزاب وانتخابات برلمانية وبرلمانات تمثل كل الاتجاهات ، ولكن الشكل العام للممارسة الديمقراطية كان فى الواقع أسطورة كاذبة ، وكان أعوان الاستعمار يخدعون بها العالم الخارجى فيزيفون الانتخابات فى نفس الوقت الذى تمتلىء فيه السجون بالأحرار ، وطالب الوطنيون بضرورة التغيير ، بعد أن أصبح التغيير مطلبًا ملحًّا وإلا فإن تأجيل الإصلاح الحقيقى نذير بالثورة ، وهكذا لا نستغرب أن نجد توفيق السويدى يخطب فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٨ فى مجلس الأعيان العراقى قائلاً :

« إن الدستور العراقى بوضعه الراهن ليس دستورًا إنه أشبه باتفاقية أو معاهدة ، إن تطور الزمن يقضى بتعديل الدستور ، إن سياسة العراق فى ظل الدستور الحالى سياسة غير برلمانية ، التقاليد الدستورية بعيدة عن تطمين الناس . الحكومات تستقيل وتؤلف غيرها ، ولا يعرف أحد أسباب تبديل الوزارات ، السياسة الاقتصادية عندنا فاشلة ، السرقات منتشرة ، الرشاوى شىء عادى .. » .

وهكذا يمكن أن يقال إن العراق كان مستعدًّا لتقبل ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ وأن المناخ السياسى كان يتنبأ بتلك الثورة قبل وقوعها .

عبد الكريم قاسم والسلطة :.

قصة حكم عبد الكريم قاسم للعراق قصة طويلة ، تناثرت فيها الأشلاء وسفكت فيها الدماء ، وانتهكت فيها الأعراض والحرمات وديس فيها جميع قيم الشعب .

لم يكن عبد الكريم قاسم هو صاحب ثورة العراق التى قامت ضد الحكم الملكى فى ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ ، بل كان المخطط الأصلى هو عبد السلام عارف ، محمد حبيب ، عبد الجبار الجومرد ، ولكن عبد الكريم قاسم هو وحده الذى نجح فى السيطرة على زملائه ، وفور نجاح الثورة احتكر لنفسه رئاسة الوزارة العراقية ووزارة الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، بينما جعل من عبد السلام عارف نائبًا له ووزيرًا للداخلية ، وأعطى للضباط زملائه ثلاث وزارات هى وزارة المالية للزعيم الركن عبد الجبار الجومرد ، الشئون الاجتماعية للزعيم الركن ناجى طالب ..

ولما وجد عبد الكريم قاسم أن خط سير الثورة لا يسير وفقًا لهواه سرعان ما تحالف مع الشيوعيين العراقيين ، وكذلك بعض العناصر الشعوبية لضرب التيار القومى الوحدوى الذى كان يقوده عبد السلام عارف ، ونجح عبد الكريم قاسم فى ضرب وحدة العراق مع الجمهورية العربية المتحدة التى كان قد أعلن عنها بين مصر وسوريا قبل قيام ثورة العراق بخمسة شهور تقريبًا .

ولذا كانت الضربة الأولى ضد عبد السلام عارف ، ثم تلتها الضربة الثانية وهى ضرب المواقع القيادية فى الثورة العراقية التى كانت تخطط للنهج العربى الوحدوى وسنده .

وتبدأ الخطوة الثالثة بالانطلاق الهمجى الشرس ضد كل العناصر والفئات والمنظمات والمؤسسات القومية المؤمنة بالوحدة وبتحرير الشعب وبإقامة المجتمع العادل ..

واستعان بالشيوعيين العراقيين الذين مثلوا مخلب القط المتعاون معه لتحقيق مخططه ظنًّا بذلك أنه أذكى منهم ، ولم يكن يدرك أنهم بدورهم يستغلونه لتحقيق مطامعهم فى العراق حيث بدءوا فى الوقت نفسه يطرحون شعاراتهم الخاصة ويحققون المكاسب لحزبهم تدريجيًّا ، ونجحت الحركة الشيوعية العراقية فى التغرير بعبد الكريم قاسم والسيطرة عليه تمامًا عن طريق الادعاء بأنها تريده أن يكون الزعيم الأوحد فى العراق وعملت على الترويج لهذه الفكرة بين أتباعها وفى نشراتها وصحافتها .

ومن خلال هذه الفكرة الخبيثة ، أوقعت بين ثورة العراق وبين عبد الناصر بحجة أن عبد الناصر لو توحدت العراق معه سيسيطر على ثورة العراق وسيصبح عبد الكريم قاسم فى الظل ، وعلى هامش السياسة وبالتالى يفقد شخصيته المميزة .

سنوات حكم قاسم :

وقد حكم عبد الكريم قاسم العراق فى الفترة من ١٩٥٨ (يوليو) حتى فبراير ١٩٦٣ ، ولكن فى خلال هذه السنوات الخمس حفر سطورًا سوداء فى تاريخ العراق تاريخًا مضغوطًا مركزًا استوعبت أحداثًا جسامًا دفعت إلى المسرح العربى السياسى بشكل أعاد إلى الاذهان فترة العصور الوسطى .

ولعل ما حدث يجب أن يكون درسًا للشعوب قبل أن يكون عظة للثوار ومن هنا علينا أن نقف لحظة فاصلة فى تاريخنا نتأملها لا بنزعة تأملية مجردة ، ولكن بنزعة من يهدف إلى فهم واقعه وإلى فهم تاريخه وإلى فهم وجوده .

فقد قلب عبد الكريم قاسم كثيرًا من القيم ، ومزق كثيرًا من المفاهيم ، لقد كان النظام القاسمى الشعوبى الأسود تحديًا لشخصية العربى فى العراق ، تحديًا لإمكانيات هذه الشخصية وطاقاتها ونزوعها للنمو والاتساع ، إن هذا النظام الذى أقامه عبد الكريم قاسم فى العراق كان تحديًا ولا شك ، كان تحديًا لآمال جماهيرنا العربية فى الوحدة وفى الحرية الاشتراكية على السواء ، لقد كان نظامًا أقيمت قواعده المزورة ورفعت دعائمه المصدعة لا من أجل تحقيق أمل شعبى ، بل من أجل ضرب كل مطمح جماهيرى ، وكل نزوع شعبى ضحى من أجله الشعب ، ومارس أساليبه الثورية بصلابة وإيمان .

لقد وجه عبد الكريم قاسم طعناته الغادرة لكل ما هو عربى ، لجميع أهداف جماهيرنا العربية ، لقد تحدى الشعب بدماء أحراره التى أسالها ، وخلال فترة حكمه التى استمرت ما يقرب من خمس سنوات حكم العراق حكمًا فرديًا مطلقًا وأمعن فى القضاء على حقوق العراقيين السياسية بمطاردة الأحرار وأخذ الأبرياء بالشبهات وتحالف مع الشيوعيين ضد القوميين ، ونكل بالمثقفين وزجهم فى السجون والمعتقلات وفرض الرقابة على الصحف ، وفى مثل هذا الجو الخانق وفى ظل هذه الأوضاع الشاذة كان لا يمكن لشعب العراق أن يسكت .

وفى عهد عبد الكريم قاسم نصبت المشانق للوطنيين ، وعبئت السجون بالأحرار الثوريين وأبعد الكثيرون عن أرض الوطن ، وسحل الشباب فى الشوارع وهدمت المنازل على من فيها إذا ضمت معارضًا واحدًا يعلو صوته فوق صوت الزعيم ، بأختصار لم تعد هناك حرمة لمقدس أو احترام لقانون ، لقد استبيح كل شىء وأصبح لكل عائلة عراقية شهيد أو سجين أو مبعد أو مطارد ، لا يعرف متى يصطاده رصاص الحرس القاسمى ولم يعد ثمة من أمان لأحد ، فالذين يخرجون من بيوتهم فى الصباح لا يعرفون أيعودون إليها فى المساء أم لا ، وكثيرًا ما كانت تصدر الأحكام الثورية ويشطب اسم أى مواطن من قائمة الأحياء دون ضجة أو ضوضاء .

لقد بدأ عبد الكريم قاسم فور انفراده بالحكم ، بدأ حملة انتقام همجية ولم توجه هذه الحملة ضد أعدائه فحسب ، بل ضد من تصور أنهم قادرون على منافسته فى الحكم أو تحديه على السلطة ، إن شهداء الحرية فى العراق ، أولئك الذين نصب الحكم الأسود لهم خلال حكم عبد الكريم قاسم ، نصب لهم المشانق وحصد منهم الأرواح ، هؤلاء لن ينساهم التاريخ لما قدموه فى مواجهة أبشع حكم بربرى فى الوطن العربى .

الزعيم الأوحد :

والواقع أن حقيقة الصراع الدموى الذى أغرق فيه قاسم شعب العراق ، حتى كادت أمواج الدم أن تحجب عنه جلاء الرؤيا ، بل لقد حجبتها فعلاً ، لم يكن ذلك إلا حربًا عقائدية عنيفة ، وليس خلافًا على نظام أو اتجاه سياسى ، فهو خلاف بين القومية العربية الحريصة على عزوبة العراق وتحريره من السيطرة والتبعية وبين القوى الأخرى التى تعمل على عزل العراق عن جسم الأمة العربية .

وهكذا فى ظل فكرة الزعيم الأوحد والشخصية المستقلة ، جر عبد الكريم قاسم العراق إلى هاوية سحيقة عزلته عن الركب العربى المتحرر ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنها وقفت ضد التيار الثورى الوحدوى ، وعطلت تقدمه ويمكن بهذا أن نقول إن ما فعله العهد الملكى قد فعل مثله عبد الكريم قاسم فى ظل حكم جمهورى .

وأسوة بكل الشعوب الحية فى مواجهة حكم الطغاة كان عبد الكريم قاسم يواجه ثورات شعبية عارمة ، ولعل أخطرها ثورة الموصل التى قادها الشهيد عبد الوهاب الشواف وصحيح أن ضحايا هذه الثورة كان يعد بالمئات لأن قاسم قضى عليها بعنف وقسوة ، ولكن يمكن أن يقال إن الخط البيانى أصبح فى غير صالح قاسم وأعوانه بعد هذه الثورة وأن العد التنازلى بدأ بعدها لإنهاء حكم الديكتاتور الأوحد .

وبالطبع تعرض عبد الكريم القاسم لأكثر من محاولة اغتيال ، ورصدت حركة المقاومة ضده العديد من هذه المحاولات لدرجة أن فرقًا ثورية تكونت لمواجهة حكم أشبه بحرب للعصابات وكان يرأس بعض هذه الفرق وطنيون وحدويون مثل إياد سعيد ثابت ، وخالد الدليمى ، ومدحت إبراهيم جمعة ، وعبد الله الركابى ، ولكن أى من هذه المحاولات لم تفلح للقضاء على الطاغية الذى لم يتورع فى إعدام زملائه من الضباط الأحرار بعد سنة واحدة وشهرين : ففى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٩ أعدم عبد الكريم قاسم زهرات الضباط الأحرار وهم ناظم الطبقجلى ، رفعت الحاج سرى ، فاضل الشقرة وكلهم شباب ملىء بالحيوية والغيرة الوطنية ، ولكن هكذا حكم الطغاة ، مصيدة الحرية وحرابا على الشرفاء ظنًا منهم أن ذلك كفيل بتصفية الجو والتمهيد لحكم طويل بلا معارضة

ولكنهم ينسون أن كل جرح من جروح الشهيد فم يصرخ بالثأر وأنين الشعوب لا يخفت أبدًا والماضى لا يموت ، والزمن لا ينسى الجراح .

ولقد كان انسحاب مجلس السيادة من ممارسة أعماله واستقالة العضو محمد مهدى ، ثم استقالة فائق السامرائى سفير العراق فى القاهرة ، وعدد كبير من المسئولين فى حكومة ١٤ يوليو إدانة كاملة لعهد عبد الكريم قاسم ، الذى جعل العراق سجنًا كبيرًا للأحرار ، ولطخ بيديه دماء أبناء الشعب العراقى وقال سفير العراق فى القاهرة إنه ينأى بنفسه أن يكون « سفيرًا لعصابة حمراء » .

الرجل اللغز :

لقد كان عبد الكريم قاسم هو أحد هؤلاء الرجال الذى حماه الاستعمار بدعايته ونشراته ومراسليه ، حتى أصبح لغزًا فى العالم فى حين أنه شخص ذو كفاءات محدودة . ولقد ظهر اتجاهه الديكتاتورى منذ وقت قيام للثورة ، فكان يصر على أن يعقد مجلس الوزراء فى مبنى وزارة الدفاع وأن يجتمع المجلس مع مجلس الرئاسة أمامه حتى لا يستطيع أحد أن يناقش أو يبدى رأيًا ما لم يقره قاسم عليه .

كان قاسم يتبع أسلوب المماطلة فى إدارة دفة شئون الحكم أكثر مما يحتمل الموقف وكان دائمًا يبعد عن أسلوب الصراحة ، لم تكن

له هوية محددة بل كان كرسى الحكم هو هويته ، وظل مشتت التفكير ضعيف الثقافة قليل الخبرة بأمور الدولة منذ اليوم الأول لحكمه ، حتى مقتله وكان لا يفارق سلاحه قط ويبيت فى وزارة الدفاع ولم يتخل يومًا عن ملابسه العسكرية ، عرف عنه الغدر فقد قام بإعفاء عبد السلام عارف من منصب نائب القائد العام ثم أعفاه من منصب الوزارة ، لأنه اعتقد أن عارف ، هو العقبة أمام انفراده بالسلطة حيث أن عارف هو الذى ظهر أمام المجتمع العراقى أنه منفذ الخطة ومحرز النصر ، وفى الواقع لولا جسارة عبد السلام عارف ومهارته واستيلائه على الإذاعة ما كانت الثورة قد نجحت ولهذا اندفع الشعب وراءه كبطل ومن هنا كان عارف فى نظر قاسم هو الحجر الأول أمام سيطرته ونفوذه خاصة وأن عارف أيضًا كان بمثابة « الدينامو » فى مجلس الوزراء ، ومعروف بنزاهته وصراحة أسلوبه وقدراته على المواجهة والمناقشة وكان لا يحمى أحدا من العهد الماضى ، وإنما ينظر إليهم على حد سواء بينما كان قاسم يحابى ويحمى بعضهم ، فقاسم كان يعتقل أناسًا من العهد البائد لا قيمة لهم ويترك بعض المخربين والفاسدين .

وكان قاسم فى الواقع مصابًا بلوثة عقلية انبهارًا بالوضع الذى أصبح فيه وما أحاطته به وسائل الدعاية والإعلام الغربية بصفة خاصة ، وكان يهتم كثيرًا باقتراحات ترد إليه من مستشفى المجانين ، ويقرأ

بعضها علنًا فى مجلس الوزراء ، ويستشهد بها أنها تمدحه ، ومن ثم لا نستغرب إذا ادعى قاسم أنه هو كل شىء وأنه فوق كل شىء فى العالم أجمع ، لقد عاش قاسم فى وهم وسط مستنقع من تعبيرات المدح والثناء والنفاق ، بحيث أصبح يدور حول نفسه ويمجد نفسه بنفسه ناسيًا واقعه راضيًا بالسراب الذى يعيش فيه من خلال نظرات المستفيدين من حوله .

اتجاهات قاسم :

وسوف يثبت التاريخ أن عبد الكريم كان مواليا للغرب وللشيوعيين أكثر من ولائه لأمته العربية ، وإذا كان قد ترك للحزب اشيوعى حرية العمل ، فذلك لأنه وجد الكثير من الصفات التى يريدها فيمن يساعدونه على تحقيق مآربه ، وكان التعذيب شيئًا عاديا فى عهد عبد الكريم قاسم مارس هذا التعذيب بألوان متعددة وبأساليب متقدمة كانت تسمى عملياتها «حفلات الترفيه» ، وكان يمكن، أن يحجز أى مواطن فى المعتقل دون إبداء الأسباب ، وهناك من يكتفى بالسخرية منهم والاستهزاء بالسب والشتم وهناك من يوجه لهم التهديد ومحاولة تحطيم الأعصاب ، وإشاعة المفتريات وهناك من يضربون ويجلدون بالعصى والهراوات ، وهناك من يشنقون بالحبال ، وآخرون يعتدون عليهم جنسيًّا والبعض تطلق عليهم الكلاب لتمزق أجسادهم إلى غير ذلك مما نقرأ عنه فى عهود البربرية الأولى،

أو يزيد ، ووصل الأمر إلى حد تجسس العائلة بعضها على بعض وإلى فرض العقوبات الاجتماعية ، ولقد انتقلت السلطة الحقيقية في المعتقلات والسجون من الموظفين الرسميين إلى الحزب الشيوعى العراقى .

محكمة المهداوى :

ولعل أسوأ ما يلصق بعهد عبد الكريم قاسم « محكمة المهداوى » التى فاقت محاكم التفيش ، والتى قال عنها عبد الرحمن البزاز سفير العراق بعد ثورة ١٤ رمضان فى القاهرة :

« إن المحاكمات التى أجريت أمام محكمة الشعب أساءت إلى فكرة العدالة ومهنة القضاء بل وإلى الشعب العراقى كله إساءة بالغة ، لا يمكن تكفيرها بغير زوال العهد الإرهابى من أساسه ، وأن ضميرى كان يوخزنى أشد الوخز حين كنت أستمع إلى تلك العبارات المبتذلة وحين كنت أبصر تلك المهازل التى كانت تمثل على مسرح ما كان يسمى « بمحكمة الشعب » من أشخاص لا أحد فى اللغة العربية كلمة تصدق عليهم » .

وكانت الأحكام الصادرة من تلك المحكمة ضد قادة الثورة والضباط الأحرار والطريقة البشعة التى نفذت فيها أحكام الإعدام لتوضح لنا روح الانتقام والإرهاب التى سادت عهد عبد الكريم قاسم طاغية العراق .

لقد بذر عبد الكريم قاسم عوائد النفط ، وضخم فى أجهزة الأمن تضخيمًا خياليا امتصت جزءًا كبيرًا من ميزانية الدولة ، وفى عهده تدهور الإنتاج الزراعى إلى الحضيض وعمت البطالة صفوف العمال ، وعانى الشعب العراقى من غلاء فاحش وتوقف فى التجارة الداخلية ، ووصل عدد من سفكت دماؤهم الطاهرة على يد هذا السفاح الطاغية ، وعصبته المجرمة أكثر من ثمانين ألف شهيد ، وأكثر من عشرين ألف مفقود وثلاثين ألفا ما بين معتقل وسجين بدون سبب قانونى ، وقد اضطرت حكومة قاسم تلافيا لمجاعة مروعة تحل بشعب العراق ، اضطر إلى فتح باب الاستيراد للمواد الغذائية على مصراعيه .

عائلة الطاغية :

وكعادة كل الطغاة نجد أحد إخوة الزعيم الأوحد « حامد قاسم » يصبح بين يوم وليلة من كبار الأثرياء وكان سمسارًا لا يملك فلسا فأصبح من كبار التجار المستوردين للقمح والأرز ، هذا إلى جانب أقارب الزعيم الذين كانوا شريحة ثرية مستغلة ، ويمكن أن يقال إن من السهل أن نغفل لطاغية مثل نيرون أو مثل جنكيز بعض أفعالهما حيث كانت سمة العصر هى الحكم المطلق ، والتمتع بالسلطة واستغلال الشعوب ولكن فى منتصف القرن العشرين يصبح الحكم

المطلق سبة فى جبين البشرية ويصبح وجود الطاغية سطورًا سوداء فى تاريخ الشعوب .

الفصل الأخير :

لقد سرق قاسم ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ، على حين غرة وغفلة ، ومعها سرق أمل الشعب العراقى فى التطور والتقدم ، وعاد العراق إلى عهود الاستبداد والاستعباد وتحكم فى خيرات الشعب وبدد ملايين الدنانير على الوفود والاحتفالات والمسيرات والمؤتمرات بلا طائل ولا عائد ، وكان يحلو له أن يقلد الأباطرة والأكاسرة والسلاطين .

ومن أجل ذلك كان لابد أن يسقط وكان لابد وأن تنتهى قصته تلك القصة التى تقول إنه كان ثانى ابن لأب من أصل متواضع ، وأنه دخل الكلية الحربية وكان يكره الثقافة ولا يحب السياسة معزولاً عن زملائه صامتا ، ترى فى عينيه بريقًا لا يعبر عن عبقرية بقدر ما يوحى بالجنون ، كان له أخ أكبر منه هو حامد وعاش فى صغره محرومًا حاقدًا وشخصيته مهزوزة وغير ثابتة ، وعاش حياته محتميًا بغيره ، لا يحب المواجهة ولكنه يعشق الالتواء ، لا يتعامل بالأخلاق وإنما تهمه المصلحة عاش فى تحالفات متناقضة من أجل تحقيق أهدافه ، ظن أنه أذكى من كثيرين ممن حوله ولكنه فى الواقع كسب شيئًا واحدًا وهو لعنة شعبه إلى الأبد .

وفى نهاية أيامه عمت الاضطرابات والفوضى والإضرابات كل مدن العراق الكبرى إلى درجة أن قام قبل سقوطه بشهرين باعتقال أكثر من ٥٠٪ من طلبة بغداد ، حيث فقدت مخابرات قاسم أعصابها تمامًا فانطلقت تلقى القبض على طلبة صغار لم يتجاوزوا الخمسة عشر عامًا ، وبدأ يظهر على قاسم الخوف والقلق والهلع من الغد المجهول الذى بدأ مع صبيحة يوم الجمعة ١٤ رمضان سنة ١٩٦٣ ، وقاد الثورة ضد قاسم زميله السابق عبد السلام عارف مع أحمد حسن البكر مع مجموعة من الضباط الأحرار وأحس قاسم بالنهاية فبدأ يهلوس بالمفاوضات والاستسلام ، ولكن الثوار كانوا يعرفون غدره ، لذلك دكوا وزارة الدفاع وقفز عبد الكريم قاسم من سور الوزارة ولكن سرعان ما عاد إلى داخل المبنى ، ثم هرب إلى المسجد المجاور وقفز منه على مبنى قاعة الشعب ، وهى مسرح كان مخصصًا لحفلات قاسم وأتباعه ومن فوق سطح المبنى دخل القاعة فحاصرته الجنود من ناحية وهى تصيح « سلم يا طاغية » .

وتكلم قاسم مع عارف بالتليفون متوسلاً إليه أن يبقى على حياته وكان رد عبد السلام عارف أن الأمر لا يعود إليه وحده بل إلى زملائه .

فقال قاسم : أتريدنى أن أنتحر ، ورد عارف قائلاً له : « سلم نفسك » إلى المجلس الوطنى ، وقال قاسم : إنه مستعد للتسليم

دون خلع الملابس العسكرية وبدأت تظهر عليه علامات الانهيار التام حيث كان يقفز من فوق الأرض مع انفجار كل قنبلة أو قذيفة مدفع كأنه يسمعها لأول مرة .

وبدون أن يدرى قدم قاسم جميع أعوانه إلى الاعتقال ، لأنه كان يتصل بهم خلال حصاره بالتليفون فيعرف أماكن تواجدهم ، فيعتقلون فورًا ، وكان ضمن من سلموا مع قاسم ، قريبه المهداوى الذى ظهر الفزع عليه ، وكان يتوسل باكيًا قائلاً للضابط الذى اعتقله : « لا تقتلنى يا سيدى » ، أما قاسم فكان ساكتًا كالموتى بينما كان « بيريا » العراق وهو الشيوعى طه الشيخ أحمد تعجز ساقاه عن حمله ، ورابعهم هو قاسم الجنابى ..

وفى الطريق إلى محاكمته حاول أن يتظاهر بتمالك أعصابه فرفع يده محييًا الجنود ولكنه فوجىء بالشعب والجنود يبصقون على وجهه فزاد وجهه اصفرارًا وارتعش جسده .

وكانت التهم التى وجهت له فى محاكمته هى أربع تهم :

١ - قاسم عدو الشعب سخر موارد البلاد لشهواته وتأمين مصالحه هو ومن معه .

٢ - صادر الحريات وداس الكرامة الوطنية وخان الأمانة وعطل القوانين واضطهد المواطنين .

٣ – استغل منصبه واندفع بكل الوسائل الدنيئة والأساليب الإجرامية لإقامة حكمه الأسود .

٤ – أفقر البلاد وصدع الوحدة الوطنية وعزل العراق عن ركب العروبة المتحررة ، وطعن أمانى الشعب القومية وترك لأهله وأقاربه الفرصة للإثراء الفاحش على حساب الشعب .

كان عبد الكريم قاسم أسوة بكل الطغاة يحقد على كل صاحب مبدأ أو رسالة ، يظهر غير ما يبطن ، الخديعة دائمًا مرتسمة على وجهه ولا يحب إلا نفسه ، كان يدعى الزهد وهو فى ذات الوقت يقيم فى جناح لا يسكنه إلا الملوك ، كان يحب الحياة أكثر من الحياة ذاتها ، لقد قتل الآلاف لينفرد بالحياة ثم انتهى مصيره إلى القتل حيث كان القصاص العادل حرمانه من هذه الحياة التى حرمها على الكثيرين .

ولقد جاء قاسم إلى دار الإذاعة حيث عقدت محاكمته وكان متخاذلاً وفى ذهول ويرتجف وغير قادر على الوقوف على قدميه ووضح من المحاكمة أن عبد الكريم قاسم لم يكن يعرف تفصيلات خطة ثورة ١٤ يوليو ، ولم يشارك فى وضعها ولم يعد البيان الأول لها ، وكيف كان يدعى النزاهة بينما يترك أخاه الذى أطلق عليه العراقيون « البرنس » حامد رئيسًا لنادى التجارة ، وله أموال باسمه فى بنوك أوروبا وأمريكا تحت أرقام سرية .

وكان عبد الكريم قاسم نفسه يدعى أنه لايملك سوى القميص الذى يرتديه بينما كان يعيش فى جناح يشبه أجنحة أعظم فنادق موناكو أو جزيرة كابرى .

بعد المحاكمة قرر المجلس الوطنى إعدام عبدالكريم قاسم بالرصاص حتى الموت وجاءت النهاية فى تمام الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر السبت يوم ١٥ رمضان ١٣٨٢ الموافق ٩ فبراير ١٩٦٣ ، وهكذا لقى الطاغية حتفه تحت أقدام الثوار ولم يفلت المجرم الجلاد والطاغية السفاح من كل ما قدمت يداه .

باتستا
طاغية كوبا

حرية الإنسان أثمن مالديه فى هذه الحياة وأقدس مايملكه . فإن فرط فيها أصبح لا وجود له ولا كيان لوجوده ، والتاريخ يتوقف عند الاعتداء على الحريات متمثلاً فى اعتقال شخص بدون جريمة أو حبس مواطن بدون خطيئة أو تعذيبه أو إهانة أو إذلال إنسانيته ..

والتاريخ أيضًا ينسى للحاكم كل خطاياه إلا اعتداءه على حرية مواطنيه أو ظلم شعبه ورعاياه أو التسلط عليهم من خلال حكم الإرهاب والطغيان . وسلب الإنسان حريته يقتل فى داخله روح الانتماء والكرامة ، ويزرع فى قلبه الخوف والتردد ، وقوانين التاريخ ثابتة فهى تسجل العدل وتحذف كل الأمجاد إذا اقترنت بالظلم ..

وباتستا .. من قارة تبعد عنا آلاف الأميال ولكن إحساسنا بالإنسان فى كل زمان ومكان ، يجعلنا نقترب منه كثيرًا لنتعلم من الدروس ،ولنؤكد فى كلمات تتدفق تدفق الدم من القلب كلمات هى كبد الحقيقة ، وهى أن قضية الحرية للإنسان دومًا مترابطة ودفاعه عنها شرف لا يدانيه شرف ولا يعلو فوقه هدف .

ولقد كان « باتستا » الإرهابى الملعون الذى حكم « كوبا » بالحديد والنار واستعان على حكم مواطنيه والتسلط عليهم بالقوى الأجنبية ، ووضع نفسه فى خدمة الاحتكارات نظير سمسرة وعمولات ، وكان الثمن فادحًا حيث عاش شعبه فريسة للمرض والتفكك والإذلال ، يعانى من الفقر والجهل بسبب السلطة الحاقدة المستبدة التى لا تعترف بالقواعد الإنسانية أو القانونية أو العدالة السماوية .

فى عهد باتستا قاست كوبا ما لم تقاسيه فى عصر الاستعمار الأسبانى أو فى عهد السيطرة الأمريكية ، لقد وأد حرية الصحافة ، وقيدها وكممها وسجن كل صوت حر عارض أسلوب حكمه .

والواقع أن أمريكا اللاتينية كانت ولا تزال القارة الوحيدة فى العالم التى تعانى من حكم الطغاة منذ حصول دولها على الإستقلال من الاستعمار الأسبانى ، وحتى الآن ، وإذا كانت هناك قارة تماثل ظروفها فهى القارة الأفريقية ، إلا أن هذه القارة الأخيرة بدأت تدخل مرحلة النضج السياسى ، وتعبر مرحلة المراهقة تمهيدًا للاستقرار الذى تتطلع إليه شعوبها ، وشعوب أمريكا اللاتينية لازالت تقاسى من مغامرات الانقلابات العسكرية وحكم المغامرين وتسلط الطغاة .

وحتى نبدأ القصة من بدايتها علينا أن نتكلم عن كوبا وحركة التاريخ فيها والأرض والسكان والمعاناة والأمل والثورة التى خلصتها من ذلك الحكم الدموى الإرهابى اللا أخلاقى .

اكتشاف كوبا :

كوبا إحد جزرر الهند الغربية التى يطلق عليها جزر الأنتيل وهى تقع فى نصف الكرة الغربى ، وقد اكتشفها كريستوفر كولومبوس سنة ١٤٩٢ فى أول رحلة لكشف العالم الجديد ، وكان يعمل فى خدمة أسبانيا ، لذلك فإنه منذ هذا التاريخ وكوبا تخضع للحكم الأسبانى حيث اتخذت قاعدة للتوسع الأسبانى فى أمريكا اللاتينية .

وتتكون جزيرة كوبا من جزيرة كبيرة رئيسية وعدة جزر صغيرة ، تقع فى المحيط الأطلنطى تبعد عن فلوريدا - إحدى الولايات المتحدة الأمريكية - حوالى (١٣٥ ميلاً أى ٢١٧ كم) إلى الجنوب ، ومساحة كوبا تصل إلى ١١٠,٩٢٢ كم٢ (٤٢,٨٢٧ ميل) وكوبا تشكل نصف أراضى مساحة جزر الهند الغربية وعاصمة كوبا هى « هافانا » ، وتمتد ٧٨٠م من الشرق إلى الغرب ، وتتسع فى الجنوب الشرقي إلى ١١٩ ميلاً فقط ، بينما اتساعها فى الشمال الغربى ١٩ ميلاً فقط ، ويصل عدد سكان كوبا فى سنة ١٩٨٤ حوالى ٩,٩٤٥,٠٠٠ وتصل نسبة الزيادة فى السكان ١,٣٪ سنويًا والسكان مزيج من ثلاثة عناصر هم الهنود الحمر ، وقبل الغزو الأسبانى كان عدد الهنود الحمر فيها من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف ، ولكن الأسبان أبادوا منهم الثلث ، أما العنصر الثانى فقد كان العبيد المجلوبين من أفريقيا ، ووصل تعدادهم أكثر من ٨٠٠ ألف

عبد ، أما العنصر الثالث فهم المهاجرون من البيض وبصفة خاصة من الأسبان وقد حدث تزاوج بين العناصر الثلاثة وكان الانصهار هو شعب كوبا الحالى .

واللغة الأسبانية هى اللغة الوطنية لكوبا ، والعقيدة الكاثوليكية هى السائدة حتى سيطرة الحزب الشيوعى الذى تأسس سنة ١٩٧٦ والذى يحكم من خلال مكتب سياسى مكون من ١٦ عضوًا وجمعية وطنية من ٤٨١ مواطنًا ينتخبون لمدة خمس سنوات ، ولكن رغم ذلك فإن ٤٢٪ من السكان لازالوا يترددون على الكنيسة .

والزراعة تشكل مصدرًا هامًّا من مصادر الدخل القومى وأهم المحاصيل النقدية هى محصول السكر ، ومحصول الطباق ، وبعد التحول الشيوعى لكوبا أصبح الاتحاد السوفيتى ودول أوربا الشرقية أهم الدول المستوردة للسكر لكوبا وهناك اتفاقية طويلة الأجل بين كوبا ودول مجلس التعاون الاقتصادى لدول أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتى المعروف باسم « الكوميكون » . ولكن انتهت بانحلال أوربا الشرقية .

كوبا والتاريخ السياسى :

كان أول استعمار لكوبا هو الاستعمار الأسبانى الذى قسم البلاد إلى ٧ مناطق محلية وبسبب محصول السكر الكوبى الذى وصل

سنة ١٨٦٠ إلى أن يكون ٣٣٪ من الإنتاج العالمى ازدادات قبضة الأسبان علىٰ كوبا ، وقد عانت كوبا نتيجة لإلغاء تجارة العبيد سنة ١٨٦٥ ، واستعاضت أسبانيا عن ذلك بأيد عاملة من الهنود والصينيين وبعض أهالى المكسيك .

وقد انتهت العبودية من كوبا فى سنة ١٨٨٦ وصدر قرار بمقتضاه تحرر كل العبيد ، ولكن نظرا لقسوة الاستعمار الأسبانى وتعنته فإن أهالى كوبا دخلوا فى صراع طويل من أجل الحصول على استقلالهم ، وخاض الكوبيون حربين متواليتين للحصول على استقلالهم : الحرب الأولى بدأت من سنة ١٨٦٨ واستمرت لمدة عشر سنوات أى حتى سنة ١٨٧٨ وحشد الأسبان فيها ما يقرب من ٢٠٠ ألف جندى لمواجهة الثورة والتمرد ، ورغم خسارة أسبانيا إلا أن سيطرتها على كوبا استمرت حتى بدأت حرب الاستقلال الثانية سنة ١٨٩٥ وبفضل تدخل الولايات المتحدة بعد ثلاث سنوات من نشوب القتال أى سنة ١٨٩٨ ، انتهى الاحتلال الأسبانى لكوبا ، ولكن حل محله النفوذ الأمريكى بداية من ١٨٩٩ التى اعتبرت سنة الاستقلال ، ولكنه كان استقلاً واهيًا حيث أنه فى سنة ١٩٠١ حصلت الولايات المتحدة على حق الإشراف على السياسة الخارجية ، وعلى أنها – أى الولايات المتحدة – من حقها إنزال قواتها إذا ما تعرضت كوبا للخطر ، وقامت الولايات المتحدة بتأسيس قاعدة

عسكرية بحرية لها فى « جوانتانامو » فى كوبا لازالت هذه القاعدة الأمريكية حتى الآن فى داخل أراضى كوبا ، ومن الجدير بالذكر أن كوبا أصبحت منطقة استثمارية أمريكية بداية من سنة ١٨٩٦ حيث كانت رووس الأموال التى تستغل فى الجزيرة تتراوح ما بين ٤٠ ، ٥٠ مليون دولار ثم ارتفع هذا الرقم حتى وصل فى ظل حكم باتستا إلى ما يقرب من ٨٠٠ مليون دولار أمريكى .

وفى سنة ١٩٣٤ حصلت كوبا على استقلالها التام ، وهكذا يمكن أن يقال إن التحرر من الاستعمار الأسبانى لم يجلب الحرية لكوبا لأن معاهدة « بلات » قيدت استقلال كوبا وجعلت الولايات المتحدة تحل محل أسبانيا فى توجيه مقدرات الشعب الكوبى .

باتستا والسلطة :

فى البداية أود أن أنوه أن باتستا لم يكن أول الطغاة لجزيرة كوبا ، كما أنه لن يكون آخرهم ، ولكن باتستا هو أشدهم قسوة وأكثرهم إرهابا ودموية ، كان عميل الاستعمارالأمريكى وتشبه بالنازيين ، حيث أسس ما يشبه الجستابو للتجسس على الشعب الكوبى ، وكانت أجهزة مخابراته ما بين عسكرية ومدنية تربو على العشرين جهازًا وأخطرهم المنظمة التى عرفت باسمه والتى انشأها فى ١٠ مارس سنة ١٩٥٣ ووضع على رئاستها السفاح « ميجيل أوجالد كاريللو » الذى بشبه « بريا » فى تاريخ الاتحاد السوفيتى ،

ولعل أخطر الطغاة قبل « باتستا » هو « ما شادو جيراردو » الذى عاش فى الفترة من ١٨٦٢ إلى ١٩٤٠ وقد أنتخب رئيسًا لجمهورية كوبا عام ١٩٢٤ ولكى يستمر حكمه أثار فتنة طائفية بين شعب كوبا ولكنه أجبر على الهرب فى ١٢أغسطس سنة١٩٣٣بعد حكم دام ٩ أعوام (تسعة أعوام) وبعد سقوطه جاء نظام شعبى واسع الجماهير برئاسة «جراو سان مارتان رامون « الذى انتخب سنة١٩٣٣ رئيسًا مؤقتًا للجمهورية، ولكن لم تلبث الولايات المتحدة أن أطاحت بحكمه حيث قام انقلاب ضده بتأييد منها ولم يستطع رجال هذا الانقلاب السيطرة على الأمور ووصلت فى عهدهم سمعة الحكم فى كوبا إلى الحضيض، عندئذ انتهز ضباط من القوات المسلحة الكوبية- يخرج من تحت السلاح الفرصة وقام بانقلاب جديد وقبض على ناصية الحكم بيد من حديد، وذلك الضابط كان هو «باتستا» الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل .

قفز باتستا من صفوف الجيش ليصبح قائدا للجيش الكوبى واختير عضوًا فى مجلس الشيوخ ، واستولى على زمام الأمور معتمدًا على ولاء الجيش له ، وفى عهده عرف نظام السخرة المفروض على الجنود فى الأملاك الفخمة الخاصة بكبار موظفى الحكومة المدنيين والعسكريين ، نعم لقد وجد من العسكريين فى عهد باتستا من لطخت رؤوسهم إلى أقدامهم بدماء الشباب الكوبى الذين عذبوا

واغتيلوا ، ولم يكونوا أبدا مضطرين لذلك ، ولكن اشتغال الجنود كعبيد فى الاملاك الخاصة كان بلا شك نوعًا من الإجبار ، وليس من شك أن الفئة التى أيدت باتستا هم طغمة من الخونة والأشقياء الذين حنثوا بقسمهم فى أن يكونوا فى خدمة وطنهم مدافعين عن الشعب وحقوقه وليسوا أداة فى يد الحاكم يسهلون له طغيانه وجبروته .

ولقد كان انقلاب مارس الذى قاده باتستا خدعة دنيئة للاستيلاء على الحكم حيث استغل استياء الجيش من أساليب الحكم السابق ، ولم تلبث القوات المسلحة أن تبينت حقيقة « باتستا » ومن يحيطون به ، وتساءل الكثيرون من العسكريين الشرفاء عن الدافع الملح الذى جعل القوات المسلحة تتحمل هذه المسئولية التاريخية فى تدمير الدستور ، وفى إرهاب المواطنين وفى تسليم السلطة لفئة من الناس لا أخلاق لهم ولا ذمة ، أناس فاسدون مهترئون سياسيًّا حتى العظم عاجزون عن إشغال أية وظيفة عامة إلا بقوة الحراب والأسوأ من ذلك حراب لا يملكون الشجاعة على هزها بأنفسهم ..

وتأكد لجنود الجيش وضباطه الشرفاء أن ما وعد به « باتستا » من إصلاح الأحوال لم يكن إلا تخدير للأعصاب ، ونوعًا من الوهم وسطوًا على المستقبل عامًا بأن ما أنفقه باتستا على شراء الدبابات والمدافع والأسلحة كان يمكن أن يحل مشكلة كوبا الاقتصادية ويرفع

مستويات المعيشة فيها ، ولكن ككل الطغاة كان باتستا يظن أن قدرة الجيش على البطش ، هى السبيل الوحيد لبقائه فى السلطة وكان لسان باتستا من حوله يقول :

« مت أيها الجندى فى سبيل الحكومة ، أعطها دمك وعرقك وسوف نقدم لك خطابا وترقية بعد وفاتك (فى وقت لن تكون بحاجة إليها) فى حين نظل نحن نزداد ثراء وفى عيش رغده أقتل أيها الجندى ، عامل الشعب بالسوء واضطهده وحينما يضيق الناس ذرعًا بهذا كله فسوف تدفع أنت ثمن جرائمنا » .

لقد حكم باتستا كوبا عقب الانقلاب الذى قام به فى عام ١٩٣٣ ، وعين نفسه جنرالاً للجيش الكوبى بعد أن كان مجرد ضابط من تحت السلاح ، ونجح فى إجراء انتخابات كان هو الوحيد المرشح فيها ، ومن ثم أمسك مقاليد الأمور فى كوبا لمدة ست سنوات لم يعط فيها كوبا أى تطور أوتقدم ثم حكم أربعة أعوام أخرى أى أنه استمر فى فترة حكمه الأولى فى الفترة من ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٤ ثم أجبر على التخلى عن الحكم ، ولكنه عاد مرة أخرى وقام بانقلاب دموى رهيب فى مارس سنة ١٩٥٢ أوصى به رئيس الجمهورية المنتخب « كارلوس بريوكارس » وأعاد تنصيب نفسه بدلاً منه وقد تم ذلك بمساعدة رئيس جيش كوبا المدعو « بيريز داميرا جينو نيفد » .

هكذا يمكن أن يقال إن باستا هو الطاغية الوحيدة بين الطغاة الذى حكم بلده على فترتين منقطعتين الأولى سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٤ ، والثانية ١٩٥٢ إلى ١٩٥٩ أى أنه حكم كوبا مدة ثمانية عشر عامًا ، واعتلى السلطة من خلال انقلابين دمويين وبمساعدة خارجية من الولايات المتحدة الأمريكية .

وخلال حكم باتستا رصف طريق الشعب بالآلام والخيانات والوعود الكاذبة .صفيت خلال هذا الحكم العناصر الوطنية تصفية جسدية ، وازدحمت السجون والمعتقلات بكل صاحب رأى ، وتمنى الكثير من الكوبين الموت هروبًا من البؤس الذى عاشوا فيه خلال حكم « باتستا » ، وكان لابد أن يضحى شباب كوبا من أجل وطنهم إنقاذًا له من الظلم والطغيان ، ورغم تعدد انتفاضاتهم لم يبخلوا بجثثهم ودمائهم من أجل مستقبل بلدهم لأنهم كانوا يدركون أنه حتمًا سوف تتحرر بلدهم وتنقشع الغيوم مهما طالت السنون ، وأن الشمس سوف تشرق بعد أن حاول بضعة أفراد لا ضمير لهم ، شوهدوا بجرائم لا تغتفر سمعة كوبا ، سوف تشرق هذه الشمس على كوبا تهديهم إلى طريق النور والعدل والحرية .

وما كان الطاغية باتستا فى أى يوم رجلاً يسمح للأوهام أن تعوقه فهو لم يتردد فى أية لحظة عن اجترار الأكاذيب الملفقة للشعب ، فلقد ادعى أنه قام بانقلاباته لإنقاذ كوبا من حمامات دم محتملة

الوقوع ، ولكنه فى الواقع هو الذى أغرق كوبا بأساليب التعذيب والإرهاب والجريمة ، وخنق الحرية لشباب رفضوا الخضوع لأوامره والانصياع لإرهابه .

ومما هو جدير بالذكر أن اغتيال الأسرى قد اقترن فى تاريخ كوبا باسم « باتستا » بصورة مشوومة ، ولم تسطر فى تاريخ كوبا قط صفحة سوداء واحدة بمثل الصفحة التى سطرت فى كوبا خلال حكم « باتستا » ، حيث رافق عدد الضحايا ووحشية الجلادين قسـوة دموية رهيبة مصحوبة بحقد وحزن وبؤس عميق .

وخرج باتستا من خلال فترة حكمه الأولى بثروة قدرت بأربعين مليون دولار ، ومن خلال رئاسته الثانية وصلت ثروته إلى أكثر من ٣٠٠ مليون دولار ، بينما كان شعبه يتضور جوعًا لقد قسم دانتى جحيمه إلى تسع حلقات ، فوضع المجرمين فى الحلقة السابعة ، واللصوص فى الحلقة الثامنة ، والخونة فى الحلقة التاسعة ، ولكن الأبالسة سوف يحتارون حينما يطلب منهم أن يختاروا الحلقة الملائمة لروح باتستا ، هذا إذا كانت له روح حقًّا .

ومما يحكى عن جبروت حكم باتستا وجلاديه أنهم أرادوا اعتراف أحد المواطنين الأحرار عن اختباء الثوار فأتوا لإحدى النساء المسجونات بعين دامية وقالوا لها وهى ترى العين : « إنها تخص أخاك وإذا لم تقولى ما رفض أن يعترف لنا به فسنقلع عينه الأخرى » فما

كان من الفتاة وهى تنتفض إباء رغم حبها لأخيها إذا كنتم قد اقتلعتم له عينا ولم يتكلم فلا تنتظروا منى أن أتكلم أنا » .

ولقد وصفه « ريشارد ديميايبى » فى إذاعة الـ ب .ب .سى البريطانية بأنه دكتاتور أجوف وحاكم صغير متعجرف .

لم يتورع باتستا عن ارتكاب كل جريمة ، وكان خطؤه حين انتزع السلطة بالقوة أنه ظن أن القوة وحدها هى التى ستمكنه من الاحتفاظ بها وسالت الكثير من الدماء نتيجة لما أرتكبه من أخطاء .

لقد أصبح لا يمضى يوم دون ضحايا جدد ممن يقضون نحبهم على يد رجال البوليس ، بل إن مدير البوليس بنفسه كان يتولى قتل كل من تثور حوله الشكوك واشتدت وطأة التعذيب فى عهده حتى أن البوليس كان يلقى بجثث الضحايا على الأرصفة ليكونوا عبرة لغيرهم .

ولعل أخطر المذابح فى عهده كانت مذبحة « مولوزا » التى راح ضحيتها ما يقرب من عشرة آلاف مواطن ، ووصل الأمر أن ابنه « رين باتستا » لم تعجبه سياسة والده ، فشارك فى إحدى المظاهرات ضده دون أن يدرى أصدر باتستا الأمر بفض المظاهرات بالقوة ، وكان أن أطلق البوليس الرصاص على المتظاهرين فقتل ابنه ولما علم بالأمر أصيب بشلل فى التفكير وانقلب إلى ذئب دموى يريد قتل كل شيء وكتم كل صوت للمعارضة ضده وكان كلما يحس أن

زمام الأمور سيفلت من يده يزداد استبدادًا مما كان يزيد فى كراهية الشعب له .

جمع باتستا ثروة من السلب والنهب قدرت بثلاثمائة مليون دولار ، وفى عهده انتشرت الرشوة والمقامرة والفساد والانحلال ، وكانت أسرة باتستا تقتسم المشروعات التجارية والسياحية فى كوبا وتجمع من ذلك أرباحًا طائلة ، وكان روبرت فرناندز أخو زوجة باتستا يشرف على شبكة كبيرة من القمار ، ووصل دخله السنوى أكثر من عشرة ملايين دولار ، واستغلت مدام باتستا اليانصيب لتجنى من ورائه أموالا كثيرة وقد أسند باتستا المناصب الهامة لأسرته فمثلاً أخو زوجته كان مديرا عامًا للبوليس فى هافانا ، ولكى يدعم باتستا حكمة ، لجأ إلى تعيين آلاف من أنصاره فى وظائف وهمية تدر عليهم فى آخر كل شهر مرتبات منتظمة نظير أعمال لم يؤدوها ، والواقع أن باستا كان يجد تشجيعًا لسياسته من الولايات المتحدة ، ولو أن واشنطن أرادت إبعاد باتستا عن الحكم لتم لها ذلك قبل أن تستطيل لحية فيدل كاسترو ولتجنبت أمريكا من المصاعب التى حدثت لها فيما بعد لقد كانت الأسباب الرئيسية للثورة ضد باتستا تتلخص فى الآتى :

١ — النمو السريع للرأسمالية خاصة تحت سيطرة الأجنبى مما أدى إلى تركيز متزايد على الأرض وتطورات احتكارية ورفع أثمان الطعام .

٢ – النمو التدريجى للطبقة المتوسطة داخل كوبا ونمو تطلعاتها الطبقية للسلطة والحكم .

٣ – الدكتاتورية التى تشجع الاستثمار الأجنبى والمشاريع الأجنبية وتمجد الارستقراطية وتقيد الفرص الاقتصادية للطبقة الوسطى وحرمانها الكامل من التعبير السياسى عن نفسها ، وهذه الديكتاتورية لم تضطهد غالبية الشعب فحسب بل أيضا بعض المتعاونين معها .

٤ – الأزمات الاقتصادية المتكررة ونقص المحاصيل .

٥ – القمع الفظيع للحركة الوطنية وانتشار الاضطهاد السياسى .

حكم الحديد والنار :

لقد جعل « باتستا » كوبا فى قبضته الحديدية حيث اعتبرها إقطاعية له ولأسرته ، وجمع حوله الصحفيين الذين حاولوا أن يظهروا سمعته فى الداخل ويحسنوا صورته فى الخارج ، واحتفظ « باتستا » وعصبته بالجزء الأكبر من دخل كوبا لاستعمالهم الخاص ، وقبل أن يلقى « باتستا » حتفه كون ثروة تبلغ الملايين لقد كان مستبدا جائرًا ويعد من أقسى الطغاة فى العالم لقد سجن المئات ، وعذب وقتل ونفى كثيرًا للخارج خلال حكمه الطويل ، ولم يحدث شىء لبلده خلال حكمه ليخفف عن الناس الفقر والجهل .

وكان التذمر السياسي يزداد يومًا بعد يوم ضد حكم « باتستا » واكتسب الطاغية عداء المثقفين ، ونمت المرارة خلال حكمه فى قلوب العمال ، ولم يكن ذلك إلا نتيجة طبيعية لما قام به من إغلاق المدارس والمصانع ، لقد كانت اللحظة الراهنة على حساب البلد ، وكان اهتمام الطاغية ومن حوله موجها إلى استغلال الأرض والإنسان والجماد والحيوان فوق أرض كوبا ويغفلون تلك الانتهازية بشعارات يرفعونها تتحدث عن شرف الوطن وحرية المواطنين ، وفى ظل حكم باتستا كانت كوبا ضيعة ينهبها الأجانب مقابل عمولة يحصل عليها الطاغية وأعوانه .

نهاية الطاغية :

لابد لكل طاغية من نهاية ، لأن التاريخ هو سلسلة من الصراع بين القوى الشيطانية بما تمثله من استبداد سياسى وظلم اقتصادى وانحراف اجتماعى وبين عاشقى الحرية ومناصرى العدل والباحثين عن الأمن والاستقرار .

إن القوى الشيطانية التى جعلت سلاحها للسيطرة على الشعب الإرهاب والإباحية ، استطاعت عبر باتستا أن تضرب نطاقًا من العزلة حول الجماهير وأن تعيق حركتها وتخدر قواها .

لقد سقط « باتستا » تحت أقدام ذوى اللحى « أنصار ذلك المحامى الذى امتهن القانون ، وضايقه أن تسجن العدالة فى بلده

ونقصد به « فيدل كاسترو » الذى تشبه ببطل كوبا القومى « خوسيه مارتى » .

وفى الواقع شعب كوبا شعب ثورى بطبيعته لا يرضى الضيم ويأبى الظلم ويدافع عن حقوقه ومسلح بوعى سياسى يميزه عن بقية شعوب قارة أمريكا اللاتينية .

ومنذ انقلاب باتستا الذى قام به فى ١٠ مارس سنة ١٩٥٢ لم تسكت أصوات المعارضة ضده ، وقام ضده كفاح سرى تزعمه طلبة الجامعة وبعض العناصر النقابية وشلت الإضرابات تفكير الديكتاتور ، وكان أقوى المعارضين هم جماعة ٢٦ يوليو التى تزعمها فيدل كاسترو رئيس الحزب الأرثوذكسى فى هافانا ، وقامت هذه الجماعة بمحاولة فاشلة لطرد الديكتاتور باتستا إلى جانب محاولات جديدة لكن الطاغية قتل معظم الذين قاموا بها ، وبقى من هؤلاء الأبطال اثنا عشر رجلاً هربوا إلى جبال « سييرا مايسترا » مصممين على مواصلة الكفاح لإسقاط حكم الطاغية ، ولم يلبث أن انضم لهم فى نهاية عام ١٩٥٨ ما يقرب من عشرة آلاف متطوع .

إلا أنه خلال عام ١٩٥٧ هاجم بعض الفدائيين قصر الرياسة الذى يعيش فيه الطاغية بهدف اغتياله لكنهم فشلوا ، وكانت أعمال المدنيين فى المقاومة السرية متنوعة ، حيث قاموا بحملات الدعاية

ضد الحكومة وجمعوا ملايين الدولارات من الشعب بجميع صفوفه لشراء الأسلحة والمؤن لجيش الثوار .

وكلما زاد الثوار عملياتهم الفدائية كلما زاد عنف واضطهاد حكومة « باتستا » للمعارضة ، واعتادت منازل كوبا تلك الزيارات الليلية التى كان يقوم بها أعوان الطاغية لاعتقال أى شخص حيث يؤخذ المعتقلون إلى مراكز البوليس وثكنات الجيش وكان مصير المعتقلين ينتهى بمجرد اعتقالهم ، وتعرض عشرات الألوف من الوطنيين فى كوبا لتعذيب آثم ، وتقول الإحصاءات إن ما يقرب من عشرين ألفا من المدنيين ، قتلهم الطاغية باتستا ، ونظام حكمه ، وكانت الجثث تشوه بحيث لا يمكن التعرف عليها ولكن كان لابد للثورة أن تنتشر ، وهكذا نجحت ثورة كاسترو سنة ١٩٥٩ .

وبقى أن نقول للشعوب التى تعانى من حكم الطغاة ، إن الحرية لا تستجدى استجداء إنما تؤخذ بحد السيف وبقوة الوعى والإنسان الذى يطيع قوانين ظالمة ويسمح لأناس يسومون الوطن الذى ولد فيه سوء العذاب ليس هو بإنسان شريف ، فكما لابد للدنيا من النور ، وكذلك لابد أن يكون فيها شىء من الشرف ، وعلينا أن ندرك أنه عندما يكون هنالك الكثير من الناس بلا شرف ، فهناك إلى جانبهم كثيرون غيرهم يحملون فى أنفسهم أسمى معانى

الشرف ، وهؤلاء هم الثوار انصار الحرية والعدل والمدافعون عن حقوق الجماهير والمرآة الصادقة لنبل الشعب .. وأخيرًا هم الذين يمثلون الكرامة الإنسانية بحق .

لقد هرب باتستا لاجئًا إلى جمهورية الدومينيكان فى الأول من يناير ١٩٥٩ وكغيره من الطغاة أدرك بعد فوات الأوان عظم الجرم الذى ارتكبه فى حق ضحاياه مدركًا ما سيكتبه عنه التاريخ وكيف ستلعنه الشعوب ، وتظل تلاحق خطاياه حتى تنتهى حياته ليلقى عذاب الآخرة على ما قدمت يداه .

فرانكو

طاغية أسبانيا

أسبانيا دائمًا لها طابع خاص يختلف عن كل البلدان الأوربية فهى تكاد تكون المنطقة الأوربية فى العالم ، التى تقبل الجديد بسرعة ، والتى تقوم بالمقاومة فى شكل نضالى ، والتى تستسلم فى أوقات معينة بشكل يثير الدهشة ، ومع ذلك فقد تميز الشعب الأسبانى على مدار التاريخ ، بأنه واع دائمًا لحركة التاريخ ، فهو شعب له مزاج معين لم يتوفر لدولة أوروبية ، ولقد كان الجنرال فرانكو يمثل إحدى الظواهر التاريخية فى حياة أسبانيا .. ألا وهو الجنرال « فرانكو » القصير القامة .. ذو الملامح العادية السمين الجسد ، وقد ظل فى الصفوف الخلفية حتى ساعده الحظ بعد وفاة قائدى الثورة الواحد بعد الآخر فكان أن أصبح قائدًا للمتمردين ضد حكومة الجمهورية ، فلقد كان لموت الجنرال « سانجوريو » فى حادث الطائرة التى احترقت به فى برشلونة ، ثم لهلاك مولا ومساعديه فى طائرة أخرى أن خلا الجو نهائيًا للجنرال « فرانكو » ليدخل حلبة التاريخ ، وبعد حرب أهلية استمرت ثلاث سنوات بين عامى ١٩٢٦ - ١٩٢٩ ، دانت له الأمور فى كل أسبانيا

وأصبح امبراطورًا غير متوج ، حكم أسبانيا بالحديد والنار ، أشبه ما تكون بمعتقل كبير حيث منع الأحزاب وفرض الأحكام العرفية ، ولم يعط الصحافة حريتها ولم يجر انتخابات برلمانية إلا عندما أدركته الشيخوخة ، وكانت كلمته مطاعة والكنيسة تكرس حكمه ، ولكن رغم كونه الحاكم المطلق والديكتاتور الذى مثل آخر صور الطغاة في أوروبا ، فإنه لم يسلم أبدًا من نقد مواطنيه ومن وجود معارضة فى داخل أسبانيا تقلق مضجعه وتجعله لا يهنأ بالسلطة .

من هو فرانكو :

ولد فرانكو فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٢ فى مقاطعة فاليسنيا فى الشمال الغربى لأسبانيا ، وكان مسقط رأسه فى إحدى ضواحى هذه المقاطعة وتعرف هذه الضاحية باسم قرية « باهموند » ، وهو من عائلة تنتمى إلى الفئة الدنيا من الطبقة البورجوازية حيث كان أبوه يحمل شهادة متوسطة يشتغل بها محاسبًا فى البحرية الأسبانية ، ويعتبر فرانكو الأوسط بين إخوته ومنذ صغره أصابته مجموعة من العقد النفسية كان لها انعكاساتها فيما بعد على أسلوب حكمه ، لقد وجهه والده نحو التعليم الدينى ، على غير رغبته لأنه كان يحلم أن يكون ضابطًا فى البحرية ولكنه بعد دراسة عدة سنوات فى مدرسة « الآباء السيلزين » الكاثوليكية اكتشف أن القيم الدينية لا وجود لها عند والده ، ذلك الوالد الذى كان سكيرًا وزير نساء

وفاسد الأخلاق ولا يرعى والدته ، مما جعل هناك علاقة تعاطف وحب شاذة بين فرانكو وأمه « ماريا » بسبب قسوة أبيه عليها ، ولقد كان من أثر ذلك أن فرانكو أحب أمه على طريقة « أوديب » ، فى شذوذ جعله لا يعرف امرأة غيرها طوال حياته التى وصلت إلى أكثر من ثلاثة وثمانين عامًا ، وإن كان هذا لم يمنعه من الزواج مرة واحدة أنجب ابنة له ، عرف عن فرانكو من صغره الكسل وعدم رغبته فى القراءة ، ولقد حقد على إخوته لأن الأكبر أصبح ضابطًا فى سلاح البحرية ، والأصغر أصبح ضابطًا فى سلاح الطيران ، ونظرا لعدم وسامته ولقصر قامته فإنه لم يجد أمامه سوى الجيش البرى ، خاصة وأنه لم يكن يمارس أى لعبة ، وكان كرشه مدعاة للسخرية منه ، فاعتزل الناس وامتلأ صدره بالغيرة ، وكان عندما يتذكر جده الفلاح الأجير الذى كان أشبه بعمال التراحيل ويعمل لدى كبار الملاك متنقلاً من مزرعة لأخرى ، كان يبتسم فى صمت أشبه بمن يكظم غيظه لأنه لم يعرف عن فرانكو الضحك أبدا وحتى ولو ابتسم فإن ابتسامته تكون مصطنعة .

وقد التحق فرانكو بمدرسة الحرب الملكية ، ولم يلبث أن شعر بالغرور بعد أن ارتدى بدلة الضباط وبدأت الأحلام تداعب خياله لأن ملابسه كانت تميزه عن غيره ، ولم يكن فرانكو يملك أى عبقرية ولكن الحظ خدمه حيث انتظم فى خدمة رؤسائه وإطاعة الأوامر

العسكرية الصادرة له ، وتنفيذها حرفيا مما جعله يرقى سريعًا وقد عين جنرالاً في سنة ١٩٢٥ ، فكان بذلك أصغر جنرال فى الجيش الأسبانى وظل لمدة عشر سنوات لا يسمع اسمه حتى تجىء سنة ١٩٣٤ ، ويقع عليه الاختيار لضرب حركة قام بها العمال فى شهر أكتوبر من هذا العام ضد السلطة الشرعية وفعلاً نجح فرانكو فى القضاء على ثورة العمال وإخمادها بلا رحمة ، وقتل الكثير من العمال فى مناجم « استوريا » التى نشب بها الإضراب ، وكان ذلك العمل الوحشى هو جواز المرور لمنصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الأسبانى وقد قال عنه وزير الحربية وقتئذ المدعو « جيل روبلز » :

« لقد اخترته ليس لمهارة خاصة فيه أو كفاءة بتفوق بها على غيره ولكن لأنه شخص مطواع ينفذ الأوامر بصرامة ويمكن تحريكه كما أشاء » .

والواقع أن « روبلز » نسى أن اختياره لفرانكو كان لسبب آخر وهو أن اختياره كان بسبب العداء الذى يكنه فرانكو للجمهورية الأسبانية وهو نفس الشعور الذى كان يحمله وزير الحربية .

المسرح السياسى الذى ظهر عليه فرانكو :

كانت أسبانيا فى حاجة إلى ديكتاتور ، فحركة التاريخ كانت تنبئ بذلك حيث توالت عليها الهزائم والنكسات العسكرية ، فقد

هزمت خلال الحرب الأسبانية الأمريكية سنة ١٨٩٨ ، وتحطم أسطولها ، وقد قال فرانكو عن نفسه بعد هذه الهزيمة إنه كان يطمع فى أن يكون ضابطًا بحريًا ، ولكن الهزيمة للأسطول جعلته يتخلى عن تلك الفكرة ، لم تلبث أسبانيا أن هزمت هزيمة منكرة فى الريف المراكشى على يد قوات عبد الكريم المغربى المعروف باسم « عبد الكريم الخطابى » فى سنة ١٩٢١ وقيل إن أسبانيا فى هذه المعركة خسرت من قواتها ما بين خمسة عشر ألف قتيل وكانت هذه الهزيمة العسكرية شديدة الوطأة على الشعب ، لدرجة أن الجماهير بدأت تطالب بلجان تقصى الحقائق ، خاصة وأن بعض الفضائح بدأت تزكم الأنوف وتؤكد أن الملك وحاشيته لهما ضلع فى هذه الهزيمة فخشى « الفونسو الثالث عشر » ملك أسبانيا على نفسه ، فاختار أحد الجنرالات المعروفين قسوتهم ويدعى « بريمودى ريفيرا » وعينه رئيسًا للوزراء فى سبتمبر سنة ١٩٢٢ ، فقام هذا بمنع المظاهرات وعطل البرلمان ، وفرض الرقابة على الصحف ، وبدأ يحكم بالحديد والنار ، ولكن الشعب أبى الركون إلى الحكم الظالم مؤمنًا أن البلاد لا ترتقى إلا بنسبة ما يتمتع به أهلها من الحرية وأنه لا يرجى العدل إلا من الحكومات التى هى وليدة رغبة الأمة ، وأى قيمة للفضيلة إذا لم توجد الحرية الخاصة وأنه من المعروف أن الشعب الأسبانى شعب متدين ، وانتصرت قوى الجماهير بعد ٧ سنوات وفى سنة ١٩٣١ ، وصلت الأحزاب المؤمنة بالحكم الجمهورى إلى السلطة ، واضطر الملك أن يهرب

من البلاد وتشكلت حكومة اشتراكية يسارية ، وأعلن النظام الجمهورى فى أسبانيا ، ولكن التيار المتطرف والحركة الشيوعية التى قام بها عمال « مناجم أستوريا » والتى قضى عليها فرانكو ، ثم عداء الكنيسة للنظام الجمهورى الذى أخذ يصادر أملاكها إلى جانب عدم قدرات الحكومة الجمهورية الحفاظ على الأمن مما أوقع البلاد فى فوضى اتسمت بموجة من الاغتيالات والاضطرابات والإفلاس الاقتصادى ، وزيادة أرقام العاطلين وكل ذلك أدى إلى تدخل الجيش فى الأوضاع لإنقاذ البلاد من الهاوية . ومن ثم أعلنت ثورة الضباط وقاد الثورة « كالفوسنيلو » قائد القوات الأسبانية فيما وراء البحار ، ولكنه لم يلبث أن قتل فى حادث طائرة وخلفه الجنرال « سان جورجو » ومعه الجنرال « مولا » ولحسن حظ فرانكو أن قتل هذان الجنرالان فآلت قيادة الثورة إلى « فرانكو » بحكم أنه أقدم الرتب العسكرية .

الحرب الأهلية الأسبانية :

فى ١٨ يوليو سنة ١٩٣٦ بدأت ثورة الضباط ضد الجمهورية الأسبانية ، وقامت الحركة فى « مليلة » المغربية وبعد شهرين أصبح فرانكو قائدًا لها ، وزحف بجنوده نحو أسبانيا ، وخيل للجميع أن « فرانكو » على وشك تحقيق الانتصار بسهولة وبسرعة ، خاصة وأن معظم طوائف الشعب كانت معه ، كبار الملاك ، كبار رجال الصناعة والتجارة ، رجال الكنيسة ، القوات المسلحة ، لكن حكومة

الجمهورية لم تستسلم إلا بعد ثلاث سنوات ، واستمرت الحرب بين أنصار الجمهورية وأنصار « فرانكو » فى المدة من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٩ م ولكن الذى ساعد على طول مدة هذه الحرب هو التدخل الأجنبى لأن هذه الحرب فى الواقع خضعت للمصالح الأجنبية فقد تدخلت روسيا إلى جانب الجمهورية الأسبانية ثم تبعتها فرنسا التى كان موقفها مترددًا فى البداية ، وفى المقابل تدخلت ألمانيا وإيطاليا إلى جانب « فرانكو » .. ونجح فرانكو فى إعلان نفسه رئيسًا للدولة الأسبانية فى أول أكتوبر سنة ١٩٣٦ وفى ١٨ نوفمبر من نفس العام اعترفت به كل من إيطاليا وألمانيا .

ولقد كان منطقيًّا أن ينتصر « فرانكو » لأن القوات التى وقفت مساندة له زادت على ثلث مليون جندى – ولو أن ذلك رقم مشكوك فيه – أو لا تنقص عن مائتى ألف جندى ، منها مثلاً ما يقرب من ستين ألف إيطالى أمدهم « الدوتش موسولينى » ومنها ما يقرب من خمسين ألف جندى مغربى بالوعيد والتهديد انحازوا إلى « فرانكو » ثم بالإغراء والوعود استمروا يقاتلون معه فترة الثلاث سنوات ، بينما كانت قوات الجمهورية لا تصل إلى ٣٠ ألف جندى .. وظل « فرانكو » يحاصر « مدريد » مدة تقرب من سنتين ونصف حتى سقطت أخيرًا فى ٤ أبريل سنة ١٩٣٩ .

وتقدر خسائر الحرب الأهلية الأسبانية بما يزيد على مائة ألف

نسمة وبلغت نفقاتها نحو ثلاثة آلاف مليون جنيه إسترليني ، وطبقًا لأسعار هذا الزمان لوجدناها تعادل الآن أكثر من خمسة بلايين (مليار) جنيه إسترليني ، وبالطبع لم ينفذ « فرانكو » أي تعهد من الذى أخذه على نفسه نظير مساعدات ألمانيا أو إيطاليا له ، فألمانيا أمدته بالطائرات والخبراء نظير تحقيق بعض المصالح الاقتصادية ، وإيطاليا التى قدمت التضحيات « لأسبانيا » ، وكأنها تدافع عن أرض إيطاليا لم تستفد من علاقاته بها شيئًا مما كانت تحلم به .

فرانكو فى السلطة :

بمجرد أن استولى فرانكو على السلطة بدأ يجمع كل السلطات فى يديه ، وجعل نفسه مصدر كل التشريع ، ولكى يصبغ على حكمه مسحة من الديمقراطية فإنه أعاد تأسيس مجلس « الكورتز » ، أى البرلمان الأسبانى ، ولكنه اختار أعضاءه بنفسه وبلغ عددهم ٤٣٨ عضوًا من فئات متنوعة وكانوا جميعًا طوع بنانه ، وبدأ يتخلص من أقرب معاونيه الذين ساعدوه فى الحصول على النصر ، ووجد فى تحالف الكنيسة الكاثوليكية معه السند الرئيسى فى حكم الإرهاب الذى مارسه ، وأصبحت أسبانيا فى عهده سجنًا كبيرًا مارس فيه الاعتقال والتعذيب وتكمم الأفواه ويصادر الرأى الآخر ولا وجود لصحافة حرة ، أو لأى تجمعات ، وحكم البلاد بالحديد

والنار حيث فرض عليها الأحكام العرفية ، وألغى الأحكام المدنية وجعل المحاكمات أمام محاكم عسكرية .

إن فرانكو لم ينس ما فعلته به حكومة الجمهورية حيث أبعدته إلى جزر كنارى منفيًّا ولذلك كانت عودة المنتقم حيث قام بتصفيتها جسديًّا دون رحمة أو محاكمة ، وبعد أن كان حلم كل الذين ناصروا « فرانكو » أن يجدوا عهدًا جديدًا وحاكمًا عادلاً وزعيمًا عظيمًا قلبه ملىء بالحب لكل الذين يقاسون ، ملىء بالعدل لكل المظلومين ، بعد أن كانت جماهير أسبانيا تحلم بيوم الخلاص من حكم الملكية ثم من فوضى الجمهورية ، فوجئت بأن حكم « فرانكو » هو اليأس ذاته ، وأن فرانكو يظن نفسه الزعيم الملهم ، ومن ثم لابد من الصراع لإنهاء التعاسة والشقاء .

والشعوب لا ترحم حكامها إذا ظلموا وأفسدوا وانحرفوا ، صحيح قد لا تستطيع النيل منهم ، ولكنها تتربص بهم حتى ولو كانوا يحيطون أنفسهم بسياج من الحراسة والمخابرات ، والشعوب العظيمة تصنعها المحن ، وتصهرها الآلام وكان على الشعب الأسبانى أن يصبر لأنه فى عصرنا الحديث لا يهزم الطغيان بسهولة ، فالنضال من أجل الحرية يحتاج دائمًا إلى أنواع جديدة من المخاطرات والكفاح تلائم روح العصر .

ووقف المجتمع الدولى مع الشعب الأسبانى فى مواجهة « حكم فرانكو » ففى ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٥ قرر مؤتمر « سان فرانسيسكو » إبعاد أسبانيا عن عضويته كدولة مؤسسة للأمم المتحدة ولما أحس « فرانكو » أن الأزمة الاقتصادية الطاحنة تكاد تطيح بنظام حكمه بدأ يخاطب الولايات المتحدة فى شكل غزل رقيق ، عارضًا عليها أية قواعد عسكرية نظير معونة اقتصادية ، ولكى يدلل على حسن نواياه فإنه أعلن فى ٢٠ يوليو عن تغيرات فى وزارته ، وأدخل المتعاطفين والمؤيدين للنظام الملكى .

لكن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، كانت تشعر أن فرانكو رمز للفاشية الباقية فى أوربا ، وأن على الشعب الأسبانى أن يواجه نظام « فرانكو » ، ويعود إلى الديمقراطية ، وقد تكونت حكومة فى المنفى كان مقرها مدينة « ميكسيكو سيتى » فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ ، ترأسها الجنرال المعارض لحكم فرانكو وهو « جوزيه جيرال » ، وفى ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٦ قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة إبعاد أسبانيا عن كل أنشطتها ، وناشدت أعضاءها قطع علاقاتها بنظام « فرانكو » .

ولم تسكت المقاومة فى الداخل ، بل إن المنشورات كانت تملأ أسبانيا ، وكان إقليم الباسك يمثل عنصر القلق لنظام « فرانكو »

وبدأت الجبهات الشعبية تتكون ضد النظام ، ومن أخطر ما جاء فى هذه المنشورات :

« إلى الشعب الأسبانى ، لا ترهبوا الطغاة ولا تحسبوا أنهم سيحكمون إلى الأبد إنهم يقفون على حافة نهر اللانهاية الذى لونوا مياهه بالدم والموت ، وسرعان ما يسقطون فيه حيث تلحقهم لعنة الشعب ، ولا تنصفهم رحمة التاريخ » .

وأكدت جبهة المعارضة أن الحرية كل لا يتجزأ ، وأن الحرية السياسية تكمل الحرية الاقتصادية ، والعدل السياسى شرط العدل الاجتماعى ، والوطن لا يعنى شيئًا إن لم يكن وطنًا للحرية ولمن يعيش فيه حرًّا وأن الديمقراطية هى الضمان الأعظم للأمن والاستقرار .

ولعل أخطر هذه المنشورات ضد حكم فرانكو الذى كان قد بدأ يفقد صوابه وعين للمقاطعات حكامًا عسكريين ، ذلك المنشور الذى يقول :

« إلى أولئك الحزانى البائسين على ما وصلت إليه أحوال الأمة الأسبانية من تمزق وتفتت وتشتت ، إلى الذين فقدوا الثقة حتى فى أنفسهم فى إمكانية إصلاح أحوال بلادنا ، وإلى المؤمنين بعقيدتهم والمناضلين من أجل ذويهم نقول لكل هؤلاء ، لا تيئسوا فسوف نحطم الأسوار وننطلق لبناء مجتمع الأحرار » فلا يوجد قفص ليوضع

فى داخله شعب بأسره ، ولا يمكن أن تحبس رياح الحرية لأن هذه الحرية هى السوط الذى سنجلد به الظالمين .

واضطر فرانكو إلى تخفيف حدة قبضته ففى ٢١ مارس سنة ١٩٤٧ أعلن فى وثيقة قرار بعودة الملكية إلى أسبانيا ، وتقابل مع « خوان كارلوس دى بروبن » ليعلنه خليفته وبدأ يفتح أبواب أسبانيا ، أو بمعنى آخر بدأ يحاول التقرب من جيرانه الأوربيين لأنه قبل ذلك لم يكن على علاقة بأحد سوى زميله الديكتاتور المجاور له فى شبه الجزيرة « الآيبيرية » ، ونقصد به « سالازار » حاكم البرتغال ، والمثيل له فى الطغيان ، وكان أول أجنبى يزور فرانكو فى أسبانيا هو الملك عبد الله حيث زارها فى سبتمبر سنة ١٩٤٩ (ملك شرق الأردن) .

ولما أحست الولايات المتحدة الأمريكية أن حلف الأطلنطى فى حاجة إلى استكمال خطوط دفاعه ، وأن أسبانيا ضرورة له ، خصصت الولايات المتحدة ٦٢,٥ مليون دولار لأسبانيا فى ٦ سبتمبر – بعد موافقة الكونجرس – ضمن مشروع مارشال ، وساعدت الولايات المتحدة على الاعتراف بنظام فرانكو من منطلق أن عزلته ليست فى صالح الشعب الأسبانى ، وأحست البلاد بعض نسمات الحرية ولكن سوء الأحوال الاقتصادية أدى إلى إضراب ربع مليون عامل فما كان من « فرانكو » إلا أنه قمع الإضراب

بدون رحمة وقتل الكثيرين من العمال وفرض الأحكام العرفية وأساء معاملة المسجونين السياسيين .

وفى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٥٣ عقدت الولايات المتحدة اتفاقًا مع أسبانيا لكى يكون لها قواعد بحرية وجوية نظير مساعدات ومعونات عسكرية واقتصادية وفى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م ، صدر لأول مرة إعلان دستورى لأسبانيا بعد حكم مطلق دام ربع قرن وبعد ذلك بخمس سنوات نادى « فرانكو » بشكل علنى بأن « خوان كارلوس » هو وريثه ، وفى ٢ أكتوبر سنة ١٩٦٩ ، زار نيكسون أسبانيا ضمن جولة له فى دول البحر المتوسط ، وفى عام ١٩٧٠ (٦ أغسطس) جددت اتفاقية القواعد لخمس سنوات أخرى .

ولكن عندما قامت الجبهة الوطنية لإقليم « الباسك » بخطف قنصل ألمانيا الغربية فقد فرانكو أعصابه وبدأ يتخذ إجراءات قاسية ولم يلبث أن وجه رصاص طغيانه إلى كل الشعب .

لقد قام فرانكو خلال حكمه بنفى أكثر من نصف مليون مواطن بعيدًا عن الوطن الأم واستمر الناس فى موات ، وامتلأت السجون بالأحرار وقيل إن حكم فرانكو قام بإعدام أكثر من ٢٥٠ ألف مواطن .

إن فرانكو ككل طاغية فى التاريخ عاش معزولاً عن شعبه يحكم من خلال البندقية ويظن أنه مبعوث العناية الإلهية ، ولولا المعونات

الأمريكية لكانت أسبانيا تعانى من مجاعات متكررة ، وبدلاً من أن يحمى الشعب كان هو عذابًا للشعب .. لم يرحل عن بلاده إلا مرات قليلة ، وكان يخشى دائما الانقلابات العسكرية ، ولذا رصد الكثير من الأموال للمخابرات والجاسوسية .

نهاية الطاغية :

لقد كان حب السلطة لدى « فرانكو » أحب إليه من السلام ، وكان اعتزازه بقوته أكبر من خوفه على مستقبله أملاً فى المكوث على كرسى الحكم إلى الأبد ، رافضًا فكرة الموت مغامرًا بكل شىء حتى تحين ساعته ، كان فرانكو بداية من سنة ١٩٦٠ أى وهو فى سن الثامنة والستين ، قد بدأ يشعر بالمرض بعد أن زاد عليه التهاب الأمعاء ، وقد أصيب بالتهاب فى الوريد بالقدم اليمنى ، وظل يعانى من المرض لمدة ١٥ عامًا دون أن يعلم الشعب بذلك ، وأخيرًا فى نهاية ١٩٧٥ أصيب بتدهور فى مركز المخ الذى يوجه العضلات ، وأدى ذلك إلى الصلابة الذهنية وأدرك أن ساعته قد دنت وفى يوم ١٦ أكتوبر بدأ يعانى من صعوبة التنفس والقىء ودخل غرفة الإنعاش بداية من ٢٥ أكتوبر حيث بدأت البولينا تنذر بنهايته ، وأصيب الكبد بالتليف ثم بعد ذلك بدأ انتفاخ فى بطنه ، وكانت بجانبه ابنته وزوجته ، وبدأ يبكى وكأنه قد أحس فى الخاتمة بدنو ساعة الحساب ، وازداد نزيف المعدة مما اضطر

الأطباء إلى نقله إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية عاجلة ، توقف المخ بعدها مما كان يعنى وفاته رسميا ، نعم لقد فارق الحياة فى يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ .. وهكذا كان عقاب السماء ، وكان الجزاء العادل بعد أن أدخل الرعب فى قلوب رعاياه وبعد أن وضع أهل أسبانيا تحت الرقابة الصارمة ، وقبض على جميع الذين اشتبه فى إخلاصهم لنظامه ونصب المشانق فى مفترق المدن وأحاط نفسه بجيش من الجواسيس .

انتهى فرانكو وانسحب إلى الدار الآخرة باكيًا ، ولكنه لم ينس أن أعمال القمع والعنف الذى تتخذه سلطة ما ضد الشعب هى الوقود الذى يشعل نار الحرية ، وعلى الشعب ألا ييأس أبدًا ، فلولا الطغيان ما كسبت الحرية أكبر معاركها وكل ضربة يوجهها الطغاة للحرية تدفعها للأمام ، إن كل قبر حفره الطغاة للأحرار دفنتهم فى داخله الشعوب .

عيدى أمين

طاغية أوغندا

من المسلم به أن حكم الطغاة عقبة أمام التطور فى حياة الشعوب ، لأن الحكم من خلال السيطرة يعوق حركة التقدم والتسلط على أذهان الجماهير هو مقدمة ضياعها ، وشعوب بلا فكر قطيع من الغنم لا أمل فيها ولا مستقبل لها . وحركة التاريخ فى صراع دائم مع الديكتاتورية والاستبداد ، فإلى متى ستظل البشرية تقاسى من حكم الطغاة ، وإلى متى كتب على الإنسان أن يناضل من أجل حماية حقوقه التى منحها له الله وسلبها منه ذئاب آدمية اتسمت بالانتهازية والأنانية وبحب السلطة وكراهة الحرية ...

وعيدى أمين جنرال أفريقى ، أسطورة حكمه تتفوق على قصص جيمس بوند الخيالية ، ويعلمنا التاريخ أن الحقيقة فى كثير من الأحيان أغرب من الخيال .

حكم وطنه بالحديد والنار ، وأذل شعبه ، وأذاقه المرار ، وعاش يضحك حتى ضحكت منه الأقدار .

ولقد تحكم عيدى أمين فى حياة الشعب الأوغندى ، وسيطر على الصحافة وكممها فى قيود لا فكاك منها ، وانتشرت فى عهده

الاغتيالات واختطاف القوى السياسية المعارضة له والتنديد والتنكيل بكل محاولة لمواجهة طغيانه وديكتاتوريته .

نظرة على مسرح الأحداث :

اسم أوغندا التى نتكلم عن طاغيتها اسم حديث اخترعه البريطانيون عندما فرضوا الحماية عليها فى ١٨ يونيو سنة ١٨٩٤ ، وقد كانت أوغندة مكونة من أربع ممالك ، كل منها مستقلة عن الأخرى تمام الاستقلال وكثيرًا ما قام بينها التنافس الذى أدى إلى الحرب ، وكان أهم هذه الممالك مملكة بوجندا التى تتاخم بحيرة فكتوريا من الشمال ، ثم بونيورو وتقع فى الشمال من بوجندا ، ثم مملكة أنكولا وتورو إلى الغرب منها ثم أشولى فى الشمال من هذه الممالك ، ويفصلها عنها نيل فكتوريا .

ولم يشتهر من ممالك أوغندا سوى مملكة بوجندا ، فقد كانت هذه المملكة من أرقى الممالك ، وأكثرها تقدما وكان لها زعيم بمثابة حاكم منتخب يطلق عليه اسم « الكاباكا » يعاونه مجلس مكون من رؤساء القبائل والعشائر ، يسمى « الليكوكو » ولم يكن الكاباكا يبرم أمرًا ما لم يعرضه على « الليكوكو » ويحصل على موافقته .

وقد أثبتت كثير من الحفريات والآثار وجود اتصالات ما بين تاريخ أوغندا القديم وتاريخ الفراعنة ، ويفسر ذلك أن موجة من

الهجرات خرجت من مصر الفرعونية نحو الجنوب ، هذا إلى جانب أن كشف هذه الحفريات والآثار أظهر بوضوح أن هناك تقاربًا من ناحية اللون والعادات ونظم الحكم .

ويعتبر القرن الـ ١٩ نقطة تحول خطيرة فى تاريخ أوغندا ، فقد شاهدت فى مستهله استقرار الحضارة العربية فى عدة مراكز بين أرجائها ، ونتج عنه رفع مستوى السكان اجتماعيًا وثقافيا ، فقد عرف العرب أوغندا سنة ١٨٤٤ حينما وفدوا إليها من اليمن كتجار حيث أن أوغندا اشتهرت بمركزها الهام فى تجارة العاج وريش النعام ، وقد ساعد وجود سواحلها قرب اليمن على وجود صلات تجارية منذ القدم بينهم وبين العرب .

والأصل فى وقوع أوغندا تحت السيطرة البريطانية هو وقوعها تحت سيطرة ونفوذ شركة أفريقيا الإمبراطورية ، التى ظلت تستغلها حتى استولت الحكومة البريطانية على الشركة وذلك فى عام ١٨٩٤ ، منذ ذلك العام أصبحت أوغندا محمية بريطانية .

ولقد ساد أوغندا فترة سلام طويلة بلغت أكثر من نصف قرن حتى سميت « بالمستعمرة المثالية » ، وفى عام ١٩٥٤ رفض الكاباكا « فوستالى الثانى » قبول المشروع البريطانى بوحدة شرق أفريقيا خوفًا من فتح باب أوغندا للمستوطنين البيض مما ينتج عنه مشكلات لا حصر لها فى المستقبل .

وابتداء من العام ١٩٥٥ بدأت تنمو الحركة الوطنية فى أوغندا واتخذت ثلاث صور :

١ - المقاومة الحزبية عن طريق مجموعات الأحزاب التى بدأت تتكون ولم تقتصر فى تواجدها على داخل أوغندا ، بل خرجت إلى النطاق العالمى ونشطت فى الدعاية لقضية استقلال أوغندا فى المجال الدولى .

٢ - المقاومة السلبية ونقصد بها مقاومة الشعب بالطريقة السلبية وعدم التعاون مع المستعمر فى أى شيء ، وبالذات المقاطعة الاقتصادية لمنتجاته ورفض العمل فى معسكراته .

٣ - المقاومة العسكرية ، وكانت متواضعة فى البداية إلا أنها بدأت تنشط منذ عام ١٩٦٠ وحيث كانت معظم دول أفريقيا قد حصلت على استقلالها فى عام ١٩٦٠ ، ونظرًا لأن كلاً من بريطانيا وفرنسا كانتا قد بدأتا تصفيان الاستعمار العسكرى لمعظم مستعمراتها ، وذلك اقتصادًا للنفقات ، ومن ثم حصلت أوغندا فى أول مارس ١٩٦٢ على الاستقلال الذاتى ، وأجريت انتخابات انتصر فيها حزب الشعب الأوغندى بزعامة « ميلتون أوبوتى » وكون أول وزارة وطنية ، وفى ٩ أكتوبر سنة ١٩٦٢ حصلت أوغندا على كامل استقلالها ، وأصبحت دولة مستقلة تمامًا فى نطاق مجموعة دول الكومنولث البريطانى ولم تلبث أن انضمت للأمم المتحدة .

وقد أقيمت دولة فيدرالية من الممالك الأربعة التى تكون أوغندا حيث منح لكل منها حقوقًا متساوية خوفًا من تسلط الكاباكا « إدوارد ميونيا » ، ولكن ارضاء للكاباكا فقد اختير أول رئيس لجمهورية أوغندا فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، ولكن « ميلتون أوبوتى » دخل معه فى صراع للسيطرة على مقاليد الأمور فى أوغندا ونجح « أوبوتى » فى إنشاء حزب جديد غير حزب الشعب ، وفى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٦ قبض « أوبوتى » بيد من حديد على كافة السلطات فى أوغندا وقام فى ٢ مارس من نفس العام بطرد رئيس الجمهورية « إدوارد ميونيا » وأصبح هو الحاكم المطلق لكل أوغندا .

وفى ١٥ أبريل سنة ١٩٦٦ وضع « ميلتون » دستورًا جديدًا لأوغندا أنهى به الوضع المتميز للممالك الأربعة وأعلن نفسه رئيسًا ، ولكن لم تهدأ الأمور فى أوغندا حيث قامت محاولة انفصالية فى ٢٣ مايو سنة ١٩٦٦ فى إقليم بوجندا إلا أنها لم تستمر أكثر من ٤٨ ساعة قضى عليها بوحشية وهرب الكاباكا « ميونيا » إلى خارج أوغندا .

ولم يلبث « أوبوتى » أن ألغى النظام الفيدرالى لأوغندا ، وقسمها إلى أربعة أقاليم ، وفى يونيو سنة ١٩٦٧ عقدت أوغندا مع كل من كينيا وتانزانيا معاهدة كمبالا ، وفى ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٩ صدر دستور جديد ، وفى ٨ أكتوبر من نفس العام

أعلن « أوبوتى » ما يسمى بميثاق حقوق الإنسان الأوغندى ، وكان الهدف سد الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى أوغندا ، وزاد « ميلتون أوبوتى » قبضته على الحياة الاقتصادية فى أوغندا ، ودخلت الاشتراكية بمفاهيم انتهازية إلى أوغندا مما أدى إلى محاولة اغتيال لأوبوتى ، وكان رد فعل هذا إعلان الأحكام العرفية وحالة الطوارئ فى كل أوغندا فى اليوم التالى لمحاولة الاغتيال (٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٩) .

وفى مايو ١٩٧٠ أممت حكومة أوغندا نحو ٦٠٪ من البنوك ، وشركات التأمين والصناعات المملوكة للقطاع الخاص ... . ولكن الاشتراكية التى طبقت لم تكن من أجل الشعب بل كانت من أجل الحاكم ومن حوله من حاشية .

وازداد تذمر الناس وبدأ السخط ضد الحكومة ، واختفى الخبز وبدأت المظاهرات وعمت الفوضى ، وكان ذلك هو المناخ الملائم لحدوث أول انقلاب عسكرى فى أوغندا وهو ذلك الانقلاب الذى قاده عيدى أمين ، والذى لم يتعلم شيئًا من دروس التاريخ .

لقد وعدهم عيدى أمين بالديمقراطية ، ولكن فرض عليهم الديكتاتورية ... وعدهم بالحرية ثم سجنهم بلا رحمة وملأ بأشرافهم المعتقلات ، قال لهم إنه سيؤمن حقوق الإنسان ، فكان أول من

اعتدى على حقوق الإنسان ، بل لقد دمر روح الإنسان داخل نفسية المواطن الأوغندى ، وظن بذلك أنه قضى على كل معارضة وأن الرأى الآخر قد انتهى ولكنه كان واهمًا .

وأوغندا التى تقع فى الشمال الشرقى للقارة الأفريقية ، وهى مربعة الشكل تقريبًا ، وأقصى امتدادها من الشرق إلى الغرب نحو ٣٥٠ ميلاً ومن الشمال للجنوب نحو ٤٠٠ ميل وتحيطها تانزانيا ورواندى من الجنوب الغربى ، وزائير فى الغرب والسودان فى الشمال وكينيا فى الشرق ، أوغندا هذه تصل مساحتها إلى ٢٤١,١٣٩ كم مربع وعاصمتها كمبالا ، ومقر الحكم يقع على بحيرة فيكتوريا ، وقد قدر عدد سكان أوغندا فى سنة ١٩٨٤ حوالى ١٤,٢٦٨,٠٠٠ نسمة ، وتغطى المسطحات المائية نحو $\frac{١}{٧}$ مساحة أوغندا ، ولكنها دولة محرومة من السواحل البحرية ويتشكل شعبها من ٣٧ قبيلة من سلالات مختلفة ، ويقيم فى أوغندا نسبة قليلة من البيض تصل إلى حوالى ٠,٢٪ ونسبة من الهنود تصل إلى ١٪ .

ولكن رغم تعدد قبائل أوغندا إلا أن الصراع يدور بين أكبر قبيلتين فيها وهما قبيلة لانجى ، وقبيلة أكولى ، والقبيلة الأولى هى قبيلة « ميلتون أبوتى » والقبيلة الثانية هى قبيلة « عيدى أمين » .

وشعب أوغندا موزع من ناحيـة العقيـدة الـدينيـة إلى ثلاثة أقسام :

المسلمون ويصل تعدادهم ما يقرب من حوالى ٢ مليون وهم منتشرون فى المراكز التجارية ولكن مركز تجمعهم الرئيسى فى منجو وفى عنتيبى .

المسيحيون وقد كان للتبشير المسيحى دور كبير فى تحويل مجموعة ضخمة من الوثنيين إلى المسيحية فهناك ما يقرب من ٣ مليون مسيحى الجزء الأكبر منهم كاثوليك والبقية بروتستنت .

الوثنيون وهم يكونون التعداد الأكبر من السكان .

كيف وصل عيدى أمين إلى السلطة وأسلوب حكمه :

بمجرد حصول أوغندا على الاستقلال وقعت فى براثن حكم فاسد ، هو حكم ميلتون أوبوتى ، والذى استمر ما يقرب من خمس سنوات ، انتهت بقيام عيدى أمين بانقلابه فى ٢٥ يناير سنة ١٩٧١ ، وهرب أوبوتى إلى تنزانيا وظن الشعب أن أيام العذاب قد انتهت ، وسنوات الهوان سوف تختفى ، ولكن للأسف كان حكم عيدى أمين نموذجًا للديكتاتورية المطلقة ، وكعادة كل انقلاب عسكرى فإنه يعد الشعب بتسليم الحكم للمدنيين وعودة الديمقراطية ،

والحرص على مصلحة الشعب ولكن بعد ثمانى سنوات من الحكم كانت الحصيلة كالآتى :

- ازدياد الصراع القبلى وحدوث مجموعة من المذابح الكبيرة إلى درجة أن أطلق على عيدى أمين جزار أوغندا .

- مزيد من الانهيار الاقتصادى ، وارتفاع الأسعار وزيادة معدل التضخم وانهيار مستوى الدخل وضعف الإنتاج .

- تفشى الفساد والانحراف وظهور فئة استحوذت على ثروة أوغندا واغتنت من التجارة فى السوق السوداء .

- كثرة أعداد المعتقلين وتكميم حرية الصحافة وامتلاء السجون بالأحرار :

وقد وصل عدد من أعدمهم عيدى أمين خلال فترة حكمه ما يقرب من نصف مليون أوغندى أى بمعدل يصل إلى ٩٠٠ شخص فى اليوم ، ولعل ذلك يعود إلى كثرة الضحايا التى سقطت نتيجة للغزو العسكرى ، الذى قامت به تنزانيا فى سنة ١٩٧٩ ردًا على ما قام به هو عندما غزا تنزانيا فى عام ١٩٧٨ ، ولكن الفرق هو أنه - أى عيدى أمين - لم يسقط حكم جوليوس نيريرى ، بينما قام هذا الأخير بإسقاط عيدى أمين ، وكان ضحايا الحرب فى العامين أكثر من ربع مليون من أوغندا وحدها ، هذا إلى جانب

حرب العصابات التى قامت ضده فى أواخر أيامه ، وهكذا عندما يقتل الإنسان ضميره تتمثل نكبة الإنسانية الكبرة ، ورغم أن نطاق المعارضة لحكمه كانت ضيقة نظرًا لقسوته فى معاملة معارضيه ، حيث قيل إنه كان يلقى بمعارضيه وخصومه لتماسيح النيل ، رغم هذا إلا أنه وجد معظم الشعب يعارضه بعد أن أصبحت أوغندا التى كان يطلق عليها جوهرة أفريقيا ، أصبحت دولة مهجورة من سكانها وزراعتها قد أصابها البوار وانحطت مرافقها الاقتصادية .

ولقد بالغت الصحافة الأجنبية فى إطلاق الصفات الرذيلة على شخصية عيدى أمين حيث قالت عنه إنه كان مريضًا بحب العظمة ، وإن علاقات ربطت بينه وبين القذافى نظرًا للصفات السيكولوجية التى كانت تشترك فى شخصية كل منهما ... وصفته هذه الصحافة أنه تاريخ ملوث بالدماء والمذابح والتعذيب والطقوس البهيمية وحب الاغتصاب ، وإن كنا نعتقد أن بعض المبالغات قد صحبت هذه الأوصاف إلا أنه بلا شك كان لبعضها ظل من الحقيقة ، ولقد كانت ظروف أوغندا فور استيلائه على السلطة عاملاً مساعدًا له على السير فى طريق الطغيان حيث امتلأت خطبه بالسخرية من الإنجليز ، وانساق الشعب وراءه وكان يقول إن مرحلة استقلال أوغندا تبدأ حقا بولايته الحكم لأنه رغم حصول أوغندا سنة ١٩٦٢ على استقلالها إلا أن من تولى رئاسة أول برلمان بها كان إنجليزيًّا ،

وأنه عندما استقال وعاد لبلاده حل محله هندى ، كما أن المختص بشئون أوغندا الخارجية عقب الاستقلال كان إنجليزيًّا وبالشئون الداخلية كان هنديًّا ، وكان عيدى أمين يسخر من القوى السياسية المدنية التى رضيت هذا الوضع .

ولكن قد يكون مدعى الديمقراطية أخطر على حكم الشعوب من الذين يسفرون عن وجههم فى شكل الحكم الديكتاتورى ، وإذا كانت المقاومة فى المحور الأول تحتاج إلى حنكة ومثابرة فإن المقاومة في مواجهة الشكل الآخر من الحكام قد تحتاج إلى مقاومة أقل لأن الحكم السافر سهل مواجهته ، أما السلطة الملتوية الماكرة فمن الصعب التصدى لها .

لقد ولد عيدى أمين سنة ١٩٢٥ فى قرية اريوا فى غرب النيل الأبيض ، وأبوه فلاح ، وقد بدأت طفولته بالعمل كراعى غنم ، وفى سن ٢١ التحق بالجيش البريطانى وحارب ضد ثورة الماوماو فى كينيا ، مما يؤكد نقص الوعى السياسى لديه بفكرة الحزبية ، وقد ارتقى فى جيش أوغندا حتى وصل إلى منصب رئيس الأركان ، ولما قام بانقلابه قام بترقية نفسه إلى رتبة فيلد مارشال ، وحيث قام بالحج إلى السعودية فإن لقبه الرسمى خلال فترة تواجده فى رئاسة أوغندا كان : « الحاج فيلد مارشال دكتور عيدى أمين دادا » وقد جعل من قبيلته المسيطرة على كل شئون أوغندا والمعاونة له

فى الحكم ، فمنها كانت أجهزة المخابرات ، ومعظم أجهزة الأمن ، وكذلك كل الحرس المحيط به بل معظم قواته العسكرية اقتصرت فى عناصرها القيادية على قبيلته فقط ، وكل ذلك أحيا من جديد النعرة القبلية وزاد سخط بقية القبائل الأخرى على نظام حكمه .

وقد اتبع عيدى أمين فى فرض قبضته الحديدية على كل أوغندا نفس نظام الجستابو ، الذى اتبعه هتلر ، ونفس الأساليب البوليسية التى صار عليها «بريا» سفاح الاتحاد السوفيتى خلال حكم ستالين .

لقد انتهز عيدى أمين فرصة ذهاب أوبوتى إلى سنغافورة سنة ١٩٧١ لحضور مؤتمر لرؤساء الوزراء الأفريقيين الآسيويين وقام بانقلابه العسكرى ، وفى بداية عهده بدأ الرعب يسيطر على النفوس ، والخوف يعقد ألسنة المواطنين حيث كان من المناظر العادية كل يوم أن تطفو مجموعة من الجثث فوق نهر النيل وعدد كبير من السكان يختفى دون أن يعرف أحد عنهم شيئًا ، واستخدم أنصار عيدى أمين المطارق فى الاغتيال لأعدائه ، حيث كانت تكفى ضربة واحدة على الرأس من مطرقة تزن عشرين رطلاً ، ومن لم يمت تستمر عملية التخلص منه بضربة فى صدره وفوق معدته أو بين فخذيه .

وقد وصلت حالات التعذيب فى السجون فى عهد عيدى أمين أن كان بعض المسجونين يجبرون على أكل الجثث الآدمية والبعض الآخر يشرب الدماء التى تسيل من الذين عذبوا أو ماتوا .

وأكدت بعض الأرقام الدولية للجان حقوق الإنسان أن من تسبب عيدى أمين فى قتلهم فى أوغندا بين امرأة ورجل وطفل حوالى ٢٠٠ ألف مواطن أوغندى ، ولم تسلم أسرة عيدى أمين من غضبه فعندما اعترضت زوجته الأولى على أسلوب حكمه المدعوة سارة مامى ماليام نيندى كيبيدى وهى أم أولاده السبعة حاول قتلها مرتين ، ثم نجحت فى الهروب إلى بريطانيا بعد أربع سنوات من حكمه أى فى سنة ١٩٧٥ ولكن بعد أن كسرت ذراعها وساقها ، ثم طلق زوجته الثانية والثالثة والرابعة ولما أجهض الطبيب زوجته « كاى » — زوجة عيدى أمين التى كان قد طلقها دون ذنب جنته — أمر عيدى أمين باغتيال الطبيب وزوجته وطفلين له ، وأخذت هذه الزوجة إلى مركز التعذيب حيث ضربت بقسوة ، ثم خنقت بطوق حديد وببطء شديد ولم يكتف بذلك بل قطع أطرافها وأتى بولدين من أبنائها — والذين هم أبناؤه — ليروا هذا المنظر الفظيع قائلا لهما فى شكل أغنية يتشدق بها وهى « فلتروا ما يحدث للأمهات السيئات » .

أما «نورا » زوجة عيدى أمين الثالثة فقد اختفت ، وربما ألقى بها طعاما للتماسيح حيث سبقها الآلاف الذين اختلطت دماؤهم بطمى النيل . وفى سنة ١٩٧٥ سجن اثنين من أبنائه الشباب لأنهما ضايقاه ، وفى المساء بينما كان يحضر إحدى الحفلات قال مفتخرًا إنه لا يرحم الشيطان لو أخطأ فى حقه .

وفى عهد عيدى أمين كانت نفقته سببًا فى انهيار أوغندا الاقتصادى بل وإفلاسها ، واشتهر عن عيدى أمين حبه للسيارات حيث كان يركب الرولزريس واللانج روفر وداملر ، وكلها سيارات فخمة لا تقل طولاً عن ستة أمتار وحيث كان فى حاجة دائمة إلى المال فإنه تغاضى عن الفساد والرشوة .

عن طريق مكتب البحث الخاص بأمن الدولة استطاع عيدى أمين أن يحكم قبضته على كل القوى المعارضة ، والذى كان يقوم بعمليات التعذيب والاغتيال والتدمير وأصبح الرئيس ، ولم يكن مستغربًا أن يجد أعضاء المكتب أنفسهم أمام الرئيس الذى كان يحلو له أن يقوم بعمليات التعذيب بنفسه ، أو يشاهد رجاله وهم يقومون بتعذيب المواطنين ، وفى بعض الأحيان كان يأمر عيدى أمين أن يقتل السجناء بعضهم بعضًا .

ورغم أنه كان متعصبًا لقبيلته « كاكوا » إلا أنه كان لا يتورع فى تعذيب وقتل كل من يقع تحت يديه من أفراد هذه القبيلة ، التى كان يعيش جزء منها فى السودان بالقرب من حدود أوغندا ، ومن الأشياء التى قيلت عن عيدى أمين أنه كان يستعين ببعض أنواع من المخدرات ، يتعاطاها لكى يصدر قراراته ومنها «الماريجوانا » ، ولعل هذا ما يفسر لنا بعض القرارات المضحكة « والمتناقضة » التى كان يصدرها عيدى أمين ، فقد طلب مرة

من طائراته أن تحمله إلى لندن لمقابلة الملكة ، ومرة أخرى أعلن أنه يؤيد قرار هتلر الخاص بإبادة اليهود خلال الحرب العالمية الثانية ، وأرسل تلغرافًا إلى إسرائيل بمناسبة ضرب فريقها فى ميونيخ .

وقد اشتهر عن عيدى أمين أنه سكير من الدرجة الأولى ، ولكن كان له شراب معين يعد له خصيصًا أشبه بالكوكتيل ، ويطلق على هذا الشراب اسم « شراب الأسد » ، وكان يقول إنه بتناوله هذا الشراب يمتلك القدرة على التفكير بوضوح بالنسبة للمستقبل ، من ذلك مثلا أنه كان يقول عن نفسه ، إنه يعرف تمامًا أنه متى وأين وكيف وسوف يموت بل اليوم والشهر والسنة ، بل والساعة أيضًا بل إنه ادعى أنه يستطيع أن يعرف ويتنبأ بما سوف يحدث فى العالم كله ومن ضمن تنبؤاته المضحكة :

١ — أن الرئيس كارتر سوف يغتال .

٢ — أن البرنس شارل ولى عهد إنجلترا سوف يتزوج فتاة سمراء وسوف يطرد من إنجلترا .

٣ — أن عيدى أمين سوف يطلب ليكون سكرتيرًا لهيئة الأمم ، سيرفض وأن أوغندا ستكسب ميدالية ذهنية فى الألعاب الأولمبية ، وأن ابن عيدى أمين « نابان » سيكون سفيرًا لأوغندا فى الولايات المتحدة .

٤ – أن العرب سيلقون قنبلة هيدروجينية على إسرائيل .

٥ – أن كل البيض فى روديسا سوف يلقون حتفهم بمساعدة أوغندا ، وأن أوغندا فى عهده سوف تغزو كينيا وتانزانيا وتهزمهم ، وأن عيدى أمين سوف يكون قائدا لكل أفريقيا ، وأن أوغندا ستمتلك قنبلة هيدروجينية خلال خمس سنوات من حكم عيدى أمين ، وأن هوليود سوف تطلب منه تمثيل قصة حياته ، ولا شك أن كل هذه التنبوءات لم يكن لها أى نصيب من الصحة ، وكلها تخاريف رجل امتلأ بالغطرسة والغرور ونسى نفسه ووضعه .

ولقد عاش عيدى أمين مطلق الشهوات وكان كالملك فاروق يسعى دائما إلى البحث عن مغامرات نسائية ، وقد سئل مرة لماذا اغتيل أكثر من عدة آلاف فى أوغندا ، رد قائلاً :

فى كل بلد هناك مجموعة من الناس يجب أن يموتوا كضحايا للنظام والقانون وأن التاريخ يحمل الكثير من الأمثلة على ذلك ، وأن علىّ أن أحمى النظام الذى أمثله ، ولم يلبث أن قال لمحدثه : « إنى أملك السحر الأسود الذى يحمينا من الموت ، ومكتب المباحث الخاص بى يقوم باغتيال كل أعدائى ، وأنه فعلاً قتل آلاف منهم وأننى لا أخفى هذا على أحد » .

ويعترف عيدى أمين أنه تعرض لاثنتى عشرة محاولة للاغتيال ، ولم يكن ذلك غريبًا فذلك هو جزاء الطغيان وثمن الاستبداد والشعوب

الحرة تجد مستقبلها أمام طريق مسدود فى ظل حكم الانتهازية والنفعية لذا لابد من التحرك للتخلص من الحاكم الشيطان .

وكل من قبض عليه فى هذه المحاولات للاغتيال عذب حتى الموت ، وقطعت أطرافه وألقى بها لتماسيح النيل ، ووصل به الأمر أنه كان يقتلع عيون خصومه وينتزع ألسنتهم من حلوقهم ، وكان يعلق ضحاياه كما يعلق الجزار الذبائح على خطاف من حديد ، وذات مرة أحرق أحد ضحاياه ثم أجبر بقية السجناء على التهام جسده قطعة قطعة .

وخلال حكمه طرد الأسيويين من أوغندا ، واستولى على أموالهم وممتلكاتهم ... ولقد أحس عيدى أمين بالغرور ، وكان يكرر دائمًا أنه يملك جهازًا للمخابرات والتجسس أقوى من المخابرات المركزية الأمريكية ومن جهاز الـ ك .ج .ب (أى المخابرات السوفيتية) .

سقوط عيدى أمين :

وصلت درجة الغرور لدى عيدى أمين أنه كان يقول عن نفسه إنه أغلى قطعة ذهب فى العالم وأنه كان قائدًا من نوع خاص يختلف عن كل قادة العالم ولكن حكمته المصطنعة وغروره الزائد ، وغطرسته التى لا حدود لها هى التى جعلته يسخر كل شىء لصالحه ، ولمن معه من حاشية ، وينتهى الموقف بأن تتدهور الأحوال فى أوغندا

ويزأر الشعب مطالبًا بالثأر لضحاياه ويبدأ نجم عيدى أمين فى الأفول ، خاصة بعد أن حاول إلهاء شعبه عن المشاكل الداخلية بقيامه بغزو تنزانيا جارته ، وكانت هزيمته فى الحرب سنة ١٩٧٨ ، وهى بداية السقوط لأن الهزائم تعنى فساد النظام وحتمية التاريخ تؤكد ضرورة الإطاحة بكل قائد مهزوم .

ولقد عاش عيدى أمين لنزواته ، وفى ظل النزوات وإرضاء الشهوات يضيع الطريق من أقدام الشعوب .

لقد أصدر عيدى أمين فى سنة ١٩٧٣ قانونًا لتكميم الصحافة ، وأسس جهازًا للأمن السياسى فاق أجهزة الأمن فى أمريكا اللاتينية والدول الشيوعية ، وجعل من سجونه قبورًا للموت ، وأذل الشعب الأوغندى ، ولم يعطه إلا الوعود واكتفى بأن باع له الأوهام .

وكانت نهاية أخطائه طول لسانه وقيامه بغزو تنزانيا ، وهنا بدأ أعداؤه يتكتلون ضده ، ولكن السقوط يبدأ دائمًا من الداخل هكذا يعلمنا التاريخ ، وفرت قواته أمام قوت جوليوس نيريرى ، وهرب هو لاجئًا إلى السعودية حيث يعيش الآن مع زوجاته وأبنائه فى جدة ومحرمًا عليه العمل بالسياسة .

وكان التلذذ الطفولى الذى عاش فيه لمدة ثمانى سنوات مستمتعًا بالسلطة والصورة الحيوانية التى تعامل بها مع بنات جنسه ، والشكل

الهمجى مع أعدائه ... كان كل ذلك سببًا فى أن يسقط عيدى أمين ، ولم تنفعه مساعدات خارجية ، لأن الطاغية مهما حاول الاستمرار فلن يفلح فى الحصول على الاستقرار بعد أن خرب الضمائر واعتدى على الحرائر .

سقط عيدى أمين سنة ١٩٧٩ وجاءت مجموعة من المدنيين وبدأت رحلة جديدة من العذاب بالنسبة لشعب أوغندا ، حيث أطاح بهم الجيش مرة أخرى فى ثانى انقلاب عسكرى لعب فيه تيتو أوكيلو رئيس أركان القوات المسلحة الأوغندية دورًا قويًا وهو نفس القائد الذى قام بالإطاحة بحكم عيدى أمين .

وتثبت حكمة التاريخ أنه لا أمل مع وجود المعتقلات أن يحدث أى تطور فى المجتمعات ، كما أن كبت الحريات هو أقصر طريق للهزيمة أمام أى صدامات ، والشعوب أقوى إرادة من الحكام ، وهى لا تيأس أبدًا فى النضال من أجل الحرية حتى تحصل عليها ، ولا يمكن للطغيان أن يقهر إرادة أمة صممت على الحصول على الكرامة والعدل والحرية .

فهرس

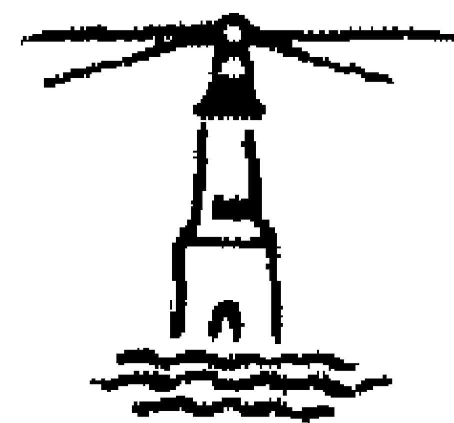
رقم الإيداع		١٩٩٣ / ١٠١٨٦
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4291 – 8	ISBN

١ / ٩٣ / ٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

لحظات الانحراف فى تاريخ الإنسان ما هى إلا لحظات إذا ما قيست بحساب الزمن فى تاريخ البشرية .. وهى الفترة التى حكم فيها الطغاة .

فمن هو الطاغى . . وما تعريف الطغيان . . هذا ما يجيب عنه الكتاب الطريف . . الجديد فى موضوعه العميق فى أثره .



دار المعارف